حدث في اسطنبول

كريم معتوق

حدث في اسطنبول

رواية

حدث في اسطنبول

تأليف: كريم معتوق

الطبعة الأولى: ٢٠١١.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الترميز الدولي: (ISBN) 978-9933-439-33-0

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء

ما وعدت أحداً بالإهداء حتى
أهدي هذه الرواية له.

الفصل الأول

جلس مرزوق على مقعده في الطائرة العائدة من اسطنبول شارد الذهن، وربط حزام المقعد، وتذكر أنه كان يتباهى قديماً حين يخدع المضيفة بعدم ربطه للحزام، ورغم ذلك كانت الطائرة تطير، وبعد ارتفاعها بقليل، أطفئت إشارة منع التدخين، فسمع أصوات علب الكبريت والولاعات من كل ناحية، فهناك عادة سيئة عند المدخنين، فبمجرد السماح لهم بالتدخين، تجدهم جميعاً يدخنون، إنها ليست قضية مزاج بقدر ما هي علاقة أنجبتها الطائرات، فالأكل والشراب في الطائرة دائماً يكون طيباً عند الجميع، حتى بعض العصائر التي نشتريها للأطفال، ولا نفكر يوماً بشربها، حين تقدمها المضيفة، تجد الجميع يشربها.

وبعد أن استقرت الطائرة في ارتفاعها ، بدأت الحركة فيها تأخذ شكل الحياة، ولم يكن مرزوق كعادته يحدق في وجوه العابرين، وكأنه يتفحصها ، وكأن هناك من لا يريد له أن يتنكر لعادته، فشدته ملامح فتاة كأنما يعرفها ، العيون الخضر التي تشبه الغابة، والطول الفارع، والبياض المنتمي للصبح، فأخرج دفتره الصغير الأحمر، وكتب بعد أن داهمه الحزن، وقد ظن أن الحزن جاء مبكراً ، فما زالت اسطنبول، ومازال في أجوائها ورائحتها ، وهناك من شباك الطائرة حيث يرى بقلبه "نيفرا" و"ليلى" و"أبو حسن قارط"، ويرى ولكن ليس بعينيه "الجفالي" وقد كان يحرضه على زيارة اليمن من أجل هدى، من أجل أن لاتصل إلى حقيقة جذورها ويخسرها النسل العربي، إن زيارة لقضية كهذه لابد أن تكون واجبة، وتبقى دون هؤلاء "نيفرا" فإنه يرى ملامحها بالعابرين ويفرح لرؤيتها وكأنه يراها لأول مرة، فهل يناديها ، وهل تأتي إذا فعل.

كلما مرّ عليّ الطول

تأتينَ ببالي

وإذا مرّت بي الغابات

ناديتُ تعالي

وتمسكتُ بأعصابي

تمسكتُ بأطرافِ سؤالي

وتغنيتُ لكي تأتي

وغنيتُ

فلا جئتِ ولا غابَ انشغالي

لا ولا جاءَ خبرْ

والمطاراتُ رحيلٌ

وأنا أبحثُ فيها عن سفرْ

لا تمادى فرحي فيها

ولا أدركني منها أثرْ

كلما أسهبتُ بالجراح

وحدقت بمن حولي

تبنّاني بكاءٌ وحنينٌ وكدر

وتمنتني الليالي

آه لو تأتين ظلاً

مثلما تأتين في الطول

وفي لونِ الشجرْ

كلما تأتي لي الغابات

تأتينَ ببالي

كالصباح المبتكرْ

كسحابِ الصيف ألقاك

ولكن بمطرْ

لقد كان قبل أيام في هذه الطائرة، وهي تطير بالاتجاه المعاكس، لا اتجاهها الآن، كان دفتره الصغير الأحمر أبيض الأوراق، ولم يتفرسها القلم بعد، ليلونه كيف يشاء، وكانت معه مجموعة من العناوين للآثار السياحية التي يتوجب عليه زيارتها، لم يكن

خالياً إلا من البال، وكان يحمل في محفظته صورة، أخرجها الآن بعد أن هجرها عدة أيام وانشغل عنها، حاول الابتسام لها فلم يستطع، فوعدها أنه سيحاول في الأيام القادمة، ولا بد له أن ينجح.

أخذ يقلب أوراق دفتره الصغير الممتلئ، ويقرأ ما كتبه في الأيام التي مرت عليه في اسطنبول، منذ أن ركب الطائرة قبل أيام، ولم يكن وقتها إلا عاشقاً يبحث عن أيام يبتعد فيها عن كل الانتماءات المتعبة، فلا يقرأ الصحف ولا يسمع الإذاعات فلا يشعر بقلق مثلما هو دائماً.

كانت الطائرة تمضغ خمس ساعات حتى تخرج إطاراتها من مخبئها وتحتضن الأرض، ولم تكن هذه الرحلة الأولى له إلى هذه المدينة العريقة، التي كانت في يوم ما عاصمة الدولة العثمانية، ولأن ملامحها شرقية الطابع، ولكثرة مساجدها التي تشي بالانتماء الإسلامي، وكذلك لقربها من الكتلة الشيوعية سابقاً، غيّر اللواء مصطفى كمال أتاتورك العاصمة، فقد حصل على رتبة لواء من الحكومة الفرنسية سنة وفاته، الساعة

التاسعة إلا خمس دقائق، كما تشير بذلك ساعة الرخام الموجودة في غرفة نومه في قصر "الدولمة باجه"، الحديقة المكتنزة، حيث كان قصر الحكم للسلاطين العثمانيين سابقاً، وأصبح مزاراً للسياح، وهو الوحيد الذي لا يخضع لوزارة السياحة، لأنه تابع لوزارة الدفاع، ومن الهدايا الكثيرة والعديدة هناك، ساعة كبيرة، صنعتها الأيدي المصرية، تعطي الوقت ودرجة الحرارة، والتنبيه، ومن العجيب أن لا نرى مثل هذه الصناعة، رغم أسبقية الاختراع العربي لهذه الساعة، ربما لعدم الاهتمام بالعلماء و المخترعين، ولا أدل على ذلك من غزو نابليون لمصر حين أحضر معه مجموعة من العلماء الفرنسيين مع مخترعاتهم، وطلب منهم أن يأتوا مع العلماء المصريين، حتى يتمكن نابليون من تطوير آلته العسكرية والمدنية، وما كان الجانب المصري إلا أن أحضر مجموعة من السحرة، كما أحضر فرعون سحرته، فقال السحرة لنابليون هل يستطيع علماؤك أن ينقلوا شيئاً من هنا إلى المغرب، فأدرك نابليون أن العقليتين مختلفتان وأن ضالته ليست هنا.

وما أن تجاوز مرزوق مكاتب المطار، وبدأت مواجهته مع الناس ابتداءً من سائق سيارة الأجرة، حتى بدأ يدرك شعور المليونير، ولكن هذه الكلمة بلا قيمة في القاموس التركي، فأنت تتحدث بالملايين من الليرات التي لا تكون أفعالها بهمة أقوالها، لذلك يسمي الأتراك الغني باشا، حتى المرة الأولى التي شعر فيها أنه مليونير لم يجد فيها متعة، غير المتعة اللفظية، وليست المتعة التي تمنى أن يلتقي بها من باب الفضول، إنه فضول كبير يصعب تحقيقه، فمن امتلك زادت موارده بسرعة كبيرة، لهذا يسمي المصريون المليون الأرنب لأنه كثير التفريخ، ومن لا يملك فعليه بزيارة تركيا أو لبنان ليستمتع بذكرها في الفنادق والمطاعم، وليحلم بالأرنب الحقيقي.

لقد عانى مرزوق شعور المليونير قبل صيف مضى في لبنان، حيث يسير كل شيء عكس اتجاه عقارب الساعة، إنها بيروت بتناقضاتها الجميلة، وبنهارها الموحش، وليلها الآسر، وبسلوى تلك التي مرت ذات شتاءٍ دافئ، وصيفٍ بارد، لتملأ مدينته صخباً لا يمل،

كلما جاءت ترتبك الثوابت من حولها ، فإشارات المرور لا تعمل بنظامها المعهود ، وحالة الطقس تساير مزاجها ، فقد أحبها كل من التقى بها ، حتى بواب العمارة القادم من أقاصي بشاور ، أصحاب الوجوه الشقراء ، فالشقار ليس على الغرب وحده ، لم يكن البواب يتقاضى أجراً على غسل سيارتها ، فقد كان يرضيه ملامسة إحدى خواصها ، وكانت شقتها من أنظف الشقق وذلك لحرص البواب على الزيارة عدة مرات في اليوم ، للتنظيف والاستمتاع بمشاهدتها ، وكذلك صاحب البقالة ، ما إن تتصل به لطلب علبة سجائر ، بالطبع مارلبورو أحمر ، فاللبناني لا يشعر باكتمال مزاجه إن لم يدخن "مارلبورو" أحمر ويستعمل ولاعة ديبون ، كان كل من في البقالة من بائعين يتسابقون لتوصيل الطلب.

إنها سلوى ، وقد أفشت له سراً عن عدد كبير من الشعراء كانوا قد كتبوا فيها شعراً ، حتى من لم يكن منهم شاعراً ، لكنها سلوى تعلموا من أجلها ، ورغم أن الذي كتبه كثير فقد كان يحس بقلته.

إن قلتُ إني قد نسيتكِ فاضحكي

أو قلتُ إني ما عشقتكِ فاضحكي

وإذا وقفتُ عن الكتابة في عيونك

فاشتكي.

لقد درس الحب العذري وشعراءه، وحفظ وأجاب في ورقة امتحان السنة الثالثة لمادة اللغة العربية إجابة كاملة، ولكنه لم يكن يفهم مشاعرهم، وكل علاقته بهم هي معلومات تاريخية، إلى أن التقى بسلوى، وأحب مثلهم الحب العذري، وعرف شعورهم وتمنى أن يعود إلى الجامعة ليضيف معلومات جديدة عن الحب العذري، وكم تمنى أن يقال له في الجامعة، هل لديك أقوال أخرى، ليقول نعم، حيث يجاور العذريون أسوار السرية، ويكتفون بالتصرف لأنه أبلغ، وربما صفة الجبن مناسبة لهم.

ومررتُ حولَ البيت لا حباً

بألوان الجدارْ

بل ربما كي تسألي

ـ ما الذي جاء بك الآن

وفي هذا النهار؟

ـ ما الذي جاء؟

ألا تدرين؟

عفواً

لك يا سيدتي مني اعتذارْ

في بيروت كل شيء يسير عكس عقارب الساعة، سلوى تتأبط يده في شارع الحمراء الذي نسي أصحاب المحلات فيه العملة الرسمية للدولة، وأصبح لبنان البلد الوحيد الذي له عملة رسمية اسماً وعملة أخرى فعلياً، وحين يأتي الظلام تتحول "بحمدون" إلى مدينة أشباح بعد أن غادرها أهلها وأصبحت الخرائب عمران بحمدون، وفي لحظة صمت اكتشف مرزوق أن البيوت فيها بلا

أبواب وشبابيك، وأدرك أنها سرقت، ولكن أين ذهب هذا الكم الكبير من الأبواب والشبابيك وهل فعلاً أقيمت بيوت أخرى استوعبتها.

قالت له سلوى وهي تتأمل في صمت المدينة، لماذا تنتقل الأصوات الصغيرة في الليل، ولماذا لا نسمعها في النهار، حتى أصوات إطارات السيارات، نسمعها في الليل. فقال مرزوق:

للشمس صوتٌ في النهارْ فلتسألي عنه المساءْ
وصلٌ تأبطه اعتذارْ ما عاد يغريه اللقاءْ

- وماذا يعني ذلك؟

- أقصد أن الشمس التي هي في حالة غليان، وضوءها عملية احتراق، يصل لنا منها صوت دويها، ولأنه متصل فنحن لا نشعر به ويصبح على ذبذبة صوتية ثابتة لا يمكن أن نميزها، وحين تغيب يكون دويها في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، فلا نسمع دويها ويصبح أضعف الأصوات صوتاً مسموعاً.

ضحكت سلوى من أسلوب مرزوق و حماسته في إيصال المعلومة العلمية والتي أصبحت متأكدة من أنها وليدة أفكاره هو لأنه كان منفعلاً وهو يتكلم، فقاطعته ضاحكة:

ـ هذا كل الذي طلع معك؟

نظر مرزوق نظرة متفرس يريد الاستئثار وقال:

ـ بل لدي أشياء أخرى.

ضحكت وقالت: أنت ديرك ع كتر الحكي.

وكان مرزوق يعرف قصة هذه المقولة فضحك، وبقيا يتأملان أشباح بحمدون وتلاطفهما النسائم الباردة صيفاً.

وصل مرزوق إلى منطقة الأسواق في اسطنبول، وبالتحديد منطقة تسمى اللاللي، حيث الأسواق والبحر الفنادق والصيارفة، وما أن ألقى حقائب السفر في الفندق، وأخفى صورة سلوى في محفظته، وسلمها إلى صندوق الأمانات في الفندق، حتى نزل يستكشف المنطقة، ويبحث عن محال السوق السوداء لتصريف

العملة، ففوجئ بأنها اختفت،وأن الرئيس التركي أوزال قد فتح أسواقاً للعملات، وأطلق الحريات على حد تعبير "بو حسن قارط"، فصرّف ما يلزمه لأيام، وعند خروجه من المحل سمع تحية الإسلام من رجل تجاوز الستين، يحمل بيديه مسبحة بنية صغيرة، لم يترك الخيط بها مسافة ليتحرك فيها الخرز، كما هي مسبحة الشباب، حيث يكون الخرز متباعداً عن بعضه ويكون لصوت الخرز حين يضرب ببعضه في الأسواق أهمية، فمع مرور الفتاة يتم إصدار ذاك الصوت، وما أن تنتبه الفتاة للصوت حتى تفاجأ بالشاب وقد أطبق أسنانه العلوية على الشفة السفلى، وأخذ نفساً عميقاً من الأنف، تعبيراً عن الرغبة والحسرة:

ـ أنا الحاج أبو حسن، عربي من أنطاكيا، هل سمعت بها.

ـ ومن لا يعرف لواء الإسكندرون؟

ـ هل يلزمك فندق أو شقة؟

ـ شكراً سكنت للتو.

ـ إذا لم تعرف الأماكن السياحية، أنا أستطيع أن أرشدك وأقوم بالترجمة لك.

ورغم أن المسافر دائماً يكون على حذر، إلا أن طبيعة مرزوق لم تكن كذلك، ولأن الحاج بو حسن هو المتحدث، لم يجد مرزوق في نفسه أثراً للحذر، فبسط إليه الود، فملاحة وجهه التي تجاوزت الستين تسحب مرزوقاً إلى سفوح الشفقة، وتشتل في قلبه شجر الرغبة في مساعدته، فما باله وهو القادم من أنطاكيا من لواء الإسكندرون، ذلك الركن المنسي في الخارطة العربية، وكأن التاريخ الحديث قد أسقطه من دفاتره، فاختفى من فهرس معرفة الأجيال اللاحقة، إنه الوليمة التي لم يدرك أحدٌ بعد مدى ثرائها، ذلك الشاطئ المسجى على المتوسط تشير إليه قبرص العربية وكأنها كانت تريد أن تفشي لنا عن سرّ اللاحق لها، ويمرر كل غروب إليه حين تنعكس أشعته من المتوسط وعداً بأن يكون هناك لقاء آخر، وأن المحاصيل لابد لها من يد عربية تتعامل معها، فالأرض كالإنسان تعرف أصحابها، وتبدع لمحبيها من خيراتها، وإن خانوا،

يحاصرها الوفاء فلا تخون، وإن غابوا فإنها تتقن فن الانتظار.

طلب مرزوق من بو حسن أن يرشده إلى مكان التلفونات الدولية، فسار معه وفي الطريق أخبره أنه توجد أجهزة تعمل بعملة خاصة وأخرى تعمل "بالقارط" وأدرك مرزوق أن بو حسن يقصد كلمة "كارت" ولكنه نطقها بتلك الصورة، فعلقت بذهنه فقرر أن يسميه بو حسن قارط.

(رجل من اسطنبول في السبعين طحن من السنين أحلاها وأعتاها، ويقول إن العمر في السبعين كالعشرين، يأكل كالأطفال بوظة، وشعر البنات، غير الذي يأكله الشباب في العشرين، وكالمكسرات يأكل المخللات هذا الذي يقدر أن يصنعه الحزين، ورغم هذا كله، يقول إن العمر في السبعين كالعشرين).

سأله مرزوق عن السبحة البنية الصغيرة، حيث تحضنها منه يدان، ومع تقوس ظهره من الكبر تصبح مشيته كالغوريلا، فهو لا يمسكها في يد واحدة إلا إذا اضطر إلى حمل شيء أو اضطر للسلام وكان قليلاً ما

يصافح باليد، فقال له إنه اشتراها من مكة، فقال له مرزوق:

ـ حججت إذن؟

ـ ألم أقل لك اسمي الحاج أبو حسن.

ـ عذراً لم أنتبه لذلك.

ـ في الحقيقة لقد ذهبت إلى الحج سبع مرات كمترجم للحجاج الأتراك مع صاحب حملة الحجاج ولكنني لم أحج.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أنا بصراحة لا أعرف طقوس الحج.

ـ تقصد مناسك الحج.

ـ ما عاد يغريه اللقاءْ هذا صحيح.

ـ كيف تترجم وماذا تترجم لهم إذن؟

ـ ربك ما عاد يغريه اللقاءْ كان يسهلها ونحن كنا نمشي مع الناس.

ـ ولماذا لم تحج وأنت معهم؟

ـ يا ابني صاحب الحملة كان يفكر بالمال فقط، ففي اللحظة التي يقف فيها الحجاج في عرفة، أكون مشغولاً في مكتب السفريات لتأكيد حجوزاتهم، وحين يكونون "بمنى" أكون مشغولاً بإعداد الباصات لنقلهم، وإذا كانوا في مزدلفة أكون مشغولاً في إعداد الطعام لهم، وهكذا كل سنة.

ـ ها أنت تعرف المناسك.

ـ ولكن بعد ماذا؟ بعد ما وقع الفأس في الرأس.

ـ وكيف ذلك؟

ـ في الرحلة السابعة، اعتقد صاحب الحملة أنني أعرف كل شيء الآن بعد ست رحلات، فأرسلني معهم، وجلس هو هنا، وقبل أن نذهب سألني: كل شيء معروف لديك، فقلت نعم، وأنا أقصد الحجوزات والأكل والباصات.

أثار حديث بو حسن قارط مرزوق فبدا مهتماً بمعرفة التفاصيل، ورغم أنهما قد وصلا إلى الفندق إلا

أن مرزوقاً أكمل مسيره ولم يشعره بمكان سكنه فسأله باستعجال:

- وماذا ثم بعد ذلك؟

- كان معي من سوء حظي عجائز وكبار في السن، يحجون لأول مرة، وكانوا يتحدثون معي عن الحجر الأسود بشوق لم يحدثني به أحد من قبل، وأحسست أن هؤلاء إذا قبلوا الحجر الأسود، أكون قد حققت النجاح المطلوب مني، وبعد وصولنا بأيام ونحن لا نستطيع حتى أن ندخل صحن الحرم، ماذا أقول، يكفي أن تعرف أنني كنت أصغرهم سناً.

- أعرف تلك المشقة، إنها عذاب ومعاناة حقيقية.

- المهم، كنت في كل يوم أتحين الفرص للوصول بهم إلى الحجر الأسود، فآخذهم آخر الليل ولا نستطيع، وأحاول فجراً ونفشل كذلك، إلى أن جئت يوماً في العصر، فوجدت الحرم فارغاً تقريباً، فذهبت إلى الفندق القريب و أحضرتهم، وبدأ العناق الذي طال انتظاره وكان تقبيل الحجر الأسود مع كل طواف نظراً

لقلة عدد الحجاج، وأثناء ذلك بدأت طائرات الهيلوكبتر بالتحليق فوقنا ، وتنادي بمكبرات الصوت، أيها الحجاج اليوم عرفة، وعليكم بالذهاب إلى عرفة.

- وأسقط في يدك!

- أدركت أنني لم أقم باستئجار السيارات المطلوبة، ولا أستطيع نقلهم، خاصة وهم متفرقون في الطواف داخل الحرم، رغم أن أغلبهم متعلق بالحجر الأسود، فأشفقت عليهم، لأنهم فرحون بذلك.

- وماذا بعد يا حاج؟

- سألني بعضهم بالتركي طبعاً ماذا تريد هذه الطائرات، وماذا يقولون بمكبرات الصوت؟

فقلت له إنهم يباركون لكم الحج وتقبيل الحجر الأسود، ففرحوا بذلك.

- يا لك من حاج، وماذا تم بعد ذلك؟

- وحين اقترب موعد عودتنا سألوني عن عرفة، فقلت لهم إن عرفة هذه السنة تحت التصليحات، لهذا فإن الوقوف في عرفة ألغي هذا العام.

وضحك بو حسن قارط وضحك مرزوق وقال:

- وانتهى كل شيء؟

- نعم انتهى كل شيء، لأنهم اكتشفوا كذبي عليهم حين عدنا إلى هنا فطردني صاحب الحملة.

- أعتقد أنه لا يجوز ذلك منك.

- وماذا أفعل بهم لقد كانوا مهووسين بتقبيل الحجر الأسود، وانشغلت طوال الوقت بتحقيق رغبتهم هذه.

تذكر مرزوق أن قارطاً قد طلب منه أن يكون دليلاً ومرشداً له، فهل يأتمنه بعد أن غدر بالحجاج، ولكنه استأنس له، فصدقه دليل نقاء سريرته، وملامحه تنم عن طيبة كبيرة، وعن معاناة من هذه الحياة، وعن آلام الرحلة من أنطاكيا إلى اسطنبول صيفاً، بحثاً عن السياح العرب، والعودة إلى أنطاكيا شتاءً، لديه أربعة أبناء وثلاث بنات، وكانوا يعملون بالإرشاد السياحي صيفاً، وقد جمعوا مبلغاً من المال، مكنه من بناء بيت في أنطاكيا، حيث يمكنه

الاستقرار النهائي هناك، منزل صغير وبستان يسميه الحاكورة، اشترته زوجته قبل سنتين، بمئة مليون ليرة، وكان والد قارط قد باعه قبل أربعين سنة بألف ليرة فقط، حتى يشتري بدلة عسكرية لأخيه الأصغر يوسف، حيث تخرج من الكلية العسكرية، وأعطوه خيطين، وكان عليه أن يشتري بدلة عسكرية حتى يعلق عليها الخيطين.

ـ ولكنني أعرف يا بو حسن أن البدلة تمنحها الدولة.

ـ هذا الآن، أما قديماً فقد كان الطالب يشتري بدلته وغالباً ما تكون غالية الثمن، والدولة تتكفل بالرتبة، نجمة كانت أم خيطاً.

ـ عندما جاء الفرنسيون، كان عمر بو حسن قارط تسع سنين، فلم يكن له الحق في التعليم الابتدائي، إضافة إلى انشغاله بالزراعة مع أبيه وأخيه الأكبر، أما يوسف الأخ الأصغر فقد كان عمره ست سنوات، فتعلم والتحق فيما بعد بالعسكرية وتقاعد برتبة عقيد،

وتعـرّف بعـد تقاعـده بتـاجر سـعودي واشـترك الاثنـان في شراء فندق صغير، ولديه مكتب للسفريات.

ـ ألا يساعدك يوسف بشيء من المال بعد أن أنعم اللّه عليه.

ـ زوجته أزميرية بنت حرام، تقلب الدنيا عليه لو فعل ذلك

ـ وزوجتك أنت؟

ـ لا.. أنا زوجتي عربية بنت أصول، أول ما سمعت أن البستان الذي باعه أبي منذ أربعين سنة من أجل شراء بدلة أخي يوسف معروض للبيع، ذهبت إلى أصحاب البستان وقالت لهم هذا بستان عمي، وأنا أولى به من الغريب، وسوف أدفع فيه السعر الذي يدفعه غيري، فاشترته الأصيلة بنت الأصول.

ـ وأخوك يوسف.

ـ تخيل أننا بعد أن اشترينا الحاكورة، أقصد البستان، عرض عليّ يوسف أن يشتريه بنفس المبلغ،

بحجة أن له ذكريات مع البستان، فهو سبب نجاحه، ويريد منا أن نشتغل فيه بالأجر.

- هذه التضحية قريبة الشبه من تضحية بطل رواية خان الخليلي لنجيب محفوظ.

- أنا لا أفهم ذلك، ولكن كيف يكون عدم ضياع البستان ذكرى جميلة له، وأنا الذي أفنيت طفولتي فيه لا يكون لي ذكرى جميلة، هذا ليس كلامه هو، إنه تدبير بنت الحرام زوجته.

إن المرأة في المجتمع التركي لا تختلف عنها في المجتمع العربي، تبقى شخصية الرجل هي الطاغية، وتجدها على شاطئ البحر حاملة ملابس الزوج والأولاد وهم يسبحون تتباهى بانتمائها للإسلام، وتؤيد القوانين المدنية في الأحوال الشخصية، وعدم السماح بتعدد الزوجات وبمساواتها في الميراث مع الرجل، أينما كانت تبقى هي المرأة، الغيرة والأنانية من خصائصها التي تعتز بها.

ـ المرأة هنا تعمل كل شيء، فمنهن الصّرافة ومنهن المديرة، وزوجة أخي تركية من أزمير وقلبها مثل الفرن المشتعل على أهله.

ـ هل لأن أزمير تشتهر بأفرانها عبر التاريخ منذ الخلافة العثمانية.

ـ هل قلت الخلافة العثمانية؟

ـ نعم هكذا علمونا في المدارس، وكذلك تسميها بعض الجماعات الإسلامية، ويسميها البعض الآخر الاستعمار العثماني.

ـ وماذا تسميها أنت؟

ـ في الحقيقة لا أعرف تماماً، فلا يمكنني أن أقول خلافة إسلامية، في حين كان العثمانيون يحاربون اللغة العربية، وكان شرط الحصول على الوظائف الرسمية إتقان اللغة التركية بالنسبة للعربي، ولا أتفق مع من يسمونها استعماراً، لأن كلمة استعمار وردت في القرآن بمعنى جميل حيث تقول الآية (٦١ـ سورة هود) "هو أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها".

ـ لم أفهم شيئاً من كلامك هذا ، يبدو أنك من المثقفين، لأن لهم آراء غريبة غير مفهومة بأمور محسومة.

ـ مثل ماذا؟

ـ في إحدى زياراتي لمدينة حمص في ذكرى تشرين، سمعت الكثير من المثقفين يتغنون ويشيدون بتشرين والكاتب محمد الماغوط.

ـ تقصد الماغوط؟

ـ نعم.. يتحدث كثيراً في مسرحياته مع غوار عن تشرين، رغم أن سوريا قد خسرت أراضٍ ومواقع جديدة في حرب تشرين[1]، فمصر فرحة لأنها عبرت قناة السويس وقالوا أكتوبر المجيد ،أما سوريا فلا أعرف سبب فرحها ، إن تشرين مثل حزيران.

ـ أعتقد أنهم فرحوا بالتكاتف العربي.

---

[1] في حرب تشرين وبعد اتفاقية وقف إطلاق النار استرجعت سوريا جزءاً من هضبة الجولان؛ حوالي ٢٠٪. "الناشر"

ـ اسمع يا بني الشعب العربي طول عمره متكاتف، والأنظمة العربية هي التي تقرر درجة الحرارة والبرودة للتقارب والتنافر.

إن مأساة بو حسن قارط وغيره الكثير لا يعرفون أن بعض المثقفين قد تطوع من تلقاء نفسه ليقرر أن الشعب العربي غير قادر على تسيير أموره، فهو لا يعرف استخدام الحرية، وغير قادر على الاختيار، ويجب أن يوكل إلى من يختار ويفكر عنه، ولكنه يعرف أن الإسلام يحاسب كل مسلم على عمله وحده، لهذا فهو حر في اختيار ثوابه وعقابه، ويعرف كذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمران ملزمان لكل مسلم.

ـ لقد بدأت تعرف بالدين يا بو حسن، فكيف أسقطت عن الحجاج ركن الوقوف بعرفة.

ـ لا تذكرني بتلك الرحلة، لقد خسرت بعدها كل شيء حتى وظيفتي بالفندق.

ـ وما دخل الرحلة بعملك؟

ـ لقد كان صاحب الفندق هو صاحب حملة الحجاج، حيث كنت أعمل مترجماً ومشرفاً على نظام الغرف، وكان دخلي جيداً قبل أن يطلق أوزال الحريات.

ـ ها أنت هنا لا تريد الحرية.

ـ لا أقصد ذلك ولكن قبل إطلاق الحريات كنا نعمل بتهريب السجائر والشاي والسكر وغيرها عن طريق السياح العرب، فهم متخصصون بذلك، أما السياح الأجانب فقد كنا نستفيد منهم بتصريف العملة، وبسرقة حاجياتهم إذا لزم الأمر.

ـ داخل الفندق؟

ـ نعم، ولكن دون أن يشعروا، فمثلاً لدينا علب شامبو أجنبية فارغة ولدينا شامبو محلي، وليست له أي فائدة وربما يساهم في تساقط الشعر، فقد كنا نقوم بنقل محتوى علب شامبو السياح الأجانب إلى علبنا الفارغة، ونضع في علبهم الشامبو المحلي الذي يساهم بتساقط الشعر.

تذكر مرزوق أن أبو حسن قارط قبل ساعات عرض عليه أن يكون دليلاً له ومترجماً فهل يمكنه أن يثق بهذا المرافق، إن حديثه شائق ولكن تاريخه وسلوكياته على علاقة غير جيدة مع الأمانة والشرف.

ـ وهل تربحون من ذلك؟

ـ الكثير، وقد كلفنا الكثير أيضاً، لقد عملت بالتهريب لمدة خمس وثلاثين سنة، ولم يحدث شيء، وحين أهداني أحد الأصدقاء خرطوشة سجائر عراقية، واللّه كهدية، أوقفني صدفة رجلان وسألاني عما بداخل لفافة الجرائد حيث أخفيها، وحين عرفا أنها سجائر أجنبية طلبا مني مئة ليرة رشوة فرفضت، فقد كان المبلغ وقتها كثيراً، وحين كشفا لي أنهما من مباحث التموين عرضت عليهما مئتي ليرة، فرفض أولاد الحرام، ودخلت السجن لثلاثة أشهر، بتهمة التهريب، وقد كانت هدية واللّه.

ـ إنها العدالة، ثلاثة أشهر سجن بعد خمس وثلاثين سنة تهريب وليست للهدية.

ـ أي عدالـة هـذه، هـل مـن العدالـة أن لا تبيـع دول الخليج لنا البترول إلا عن طريق أمريكا، لماذا لا يبيعونه لنا مباشرة حتى يصبح رخيصاً علينا.

إن الفكرة الساذجة سمعها مرزوق أكثر من مرة، فاندهش وتذكر حادثة ومقولة مشابهة، حين كان في تونس بعد حرب تحرير الكويت مباشرة، وكان يجلس في بهو أحد الفنادق فاقترب منه شخص، وبعد أن حياه عرفه بنفسه على أنه دكتور بالفيزياء في الجامعة، ودار الحوار في بهو الفندق عن حرب تحرير الكويت، حيث قال الدكتور الفيزيائي.

ـ إننا لم نتعاطف مع الكويت لأن دول الخليج هي سبب الفقر في تونس، حيث أن دول الخليج تمنح البترول مجاناً إلى أمريكا وأوروبا، وتبيعه للدول العربية.

وحين استنكر مرزوق عليه هذه السطحية في التفكير، وكيف تكون دول الخليج غنية، وبترولها يذهب مجاناً إلى الغرب، وماذا يسمي المساعدات العربية، تراجع ذلك الفيزيائي قليلاً وقال إن دول الخليج

تبيع البترول للدول الغربية بالأقساط، وتبيعه للدول العربية نقداً، فما كان من مرزوق إلا أن ترك الفيزيائي، مشفقاً على طلبته، ليقع في دوامة الأسئلة، من يا ترى يروج مثل هذه المعلومات المغلوطة على مستوى الشعوب العربية؟ ومن المستفيد من إذكاء الحقد بين أبناء الشعب الواحد؟ حتى يصبح الانتماء تابعاً للموقع وليس لما يدرس في المدارس، من وحدة الدين واللغة العقيدة، وما أتحفنا به الأحزاب العربية، وهل كل من يفشل في إيجاد الحلول للمشاكل الاقتصادية نتيجة الفردية، وعدم اعتماد نظام المؤسسات يلقي بأسباب الفشل على أشقاء له، ليس بهم من رغبة تعادل رغبة الرخاء لأشقائهم.

أن يتبنى بو حسن قارط سارق الشامبو، ومضلل الحجاج هذه الأفكار ليس بمستبعد، ولكنه مستنكر ومستقبح. أما أن يتبناها دكتور في الجامعة فهذه هي الكارثة، لأنه يزرع هذا الفكر بمجموعة من الأعاصير، إن طلبة الجامعات هم الأنسب لحركة التغيير في كل الظروف، فقد كان لتحرك الطلبة في

كوريا الجنوبية الأثر الكبير في تغيير دفة الفساد في كوريا. ورغم لجوء الرئيس المعزول إلى أحد المعابد مدّعياً الزهد بالحياة، لكنه لم ينجح، وجره الطلبة إلى المحاكمة على الفساد، بعد أن خسروا رهانهم على فرسي المعارضة، حيث كان للطمع بالكرسي الأثر السيئ، فتفرقت الأصوات.

عاود مرزوق حواره مع بو حسن قارط وسأله عن أبنائه وأعمارهم.

ـ لدي أربعة أولاد وثلاث بنات، وكلهم تزوجوا وللّه الحمد، وكل واحد منهم مشغول بحياته، وليس معي هنا إلا يوسف، وهو الآن أحنّ واحد منهم عليّ وعلى أمهم بعد البنات بالطبع، ولقد أتعبني في البداية كثيراً.

ـ كل الأولاد يُتعبون يا بو حسن.

ـ لقد عاش ابني يوسف مع فتاة من دون علمنا.

أحس مرزوق أن قارطاً لا يريد أن يكمل حديثه ولكنه لم يكن ليستنكر هذا الوضع الغربي، في بلد يسعى ويستميت من أجل الانتماء الغربي، المجلات

والصحف العارية، البرامج التلفزيونية، الحرف اللاتيني، كل هذه الظواهر مؤشر واضح للاتجاه الغربي، فهل يتزوج الأتراك على الطريقة الشرقية؟ وهل البكارة ما زالت معياراً للعفة هنا؟

ـ أكمل قارط حديثه وهما ينعطفان على الشارع الرئيسي في منطقة اكسراي.

ـ لقد اشتريت شقة في اسطنبول بعشرة ملايين قبل سبع سنوات وقد آذتني زوجتي حتى أكتبها باسم ابني يوسف وقد كنت متردداً في أول الأمر ولكن بعد إلحاحها كتبتها باسمه.

ـ ربما كانت تخشى أن تتزوج غيرها حين تكون لك شقة أخرى.

ـ يا ريت، هنا ممنوع أكثر من زوجة، والذي يعملها يدخل السجن.

ـ والإسلام.

ـ خليها على اللّه يا ابني، المهم أننا حين زرناه فجأة في شقته، وجدنا عنده فتاة مستهترة، ساكنة معه في

شقته، فصرخت فيها أن تخرج من الشقة، ولكنها صدمتني حين قالت هذه شقتي، فقد كتبها يوسف باسمي، لم أصدقها، وصرخت فيها، فأحضرت لي صورة من ورقة الطابو، والتي تسمونها الملكية، وقالت هذه لك والأصل موجود عند والدتي، وحين عاتبت يوسف قال إن والدها أصر على أن أنقل ملكية الشقة لها حتى يسمح لابنته أن تتزوجه، ولأنه يريد الزواج منها فقد قام بذلك. أدرك مرزوق حزن قارط بعد أن ألقى سيجارته أمامه مشتعلة وقد تعمد أن لا تطأها قدمه وأشعل سيجارة أخرى، وحين استكمل مرزوق منه القصة التي توقف عن سردها قال:

ـ وبعد أقل من سنة، شاهد يوسف رجلاً في بيته، فتركها وهددته إذا لم يعد إليها، ولكنه عاد لنا نحن، وقد قمنا بتزويجه ابنة إمام المسجد بقريتنا.

ـ وهل هو مرتاح الآن.

ـ المهم أن ينسى تلك الفتاة، أما بنت الشيخ توفيق إمام المسجد، فإن أهلها قد عملوا معنا ضرباً ما كان متوقعاً منهم.

لقد أحس مرزوق أن قارطاً خلق لكي يتعذب، فحياته كلها صدمات، أو كأنه فأر أبيض للتجارب، فما طعم الحياة إن كانت تركيبة كيماوية من محلول الشقاء وحبيبات النحس، وسائل الأحزان المركب، والهموم والصدمات، إنه يجر عدداً من السنين لا يمكن أن يكون في شوق لأحدها، كم هو تعيس هذا العمر الذي لا تشعر أن أحداً يتمنى منه سنة أو تراه يحسدك على سنة فيه، ربما تشبه إلى حد كبير السنين الأولى لزواج مرزوق، والسنوات الأخيرة لزواجه قبل أن ينتهي بالطلاق، إنه لا يشتاق إليها، هو في بحث دائم عن الهروب، وكأنها تطارده بأشيائها الصغرى و الكبرى، وهو لا يريد أن يذكر شيئاً من تلك الأيام، ولا أن يسمع أي شيء يعيدها لخياله الفوار الجموح.

لم تزل قربي وإن كانت بعيداً راحلة

لم تزل فرشاتها والعطر

مازالت ورود المغسلة

وشظايا صور مستبسلة

كلما حدقت تدعوني بأن أكتب شيئاً

عن حطام المرحلة

فارحلي...

تتسع الرؤيا

ويحتدّ رهيف السمع

فابدئي بالسرد

كي تخرج من تحت الوسادات

حكايا الزلزلة

أنا لازلت على رسم ألماني

أمتطي حزني

وأسرجت عذابات الليالي المقبلة

فابدئي كي أبدأ الآن صراخي

وأناديك لعلّي

حين لا تأتين تأتي المقصلة

وتوافيني حراب الحقد كي أنساك

كي أخفيك في كل مساءٍ

كنت فيه الموغلة

فغداً يومٌ جديد

ذاهب بالريح يا قلبي

وأنت البوصلة

عاش معها خمس سنوات، وقد كان يعتبر نفيه متأخراً في الزواج، حيث أبناء جيله تزوجوا ورغم أن عمره لم يتجاوز الرابعة والعشرين إلا أنه كان يظن أن تأخره في الزواج، وصورة الزوجة التي ارتسمت في مخيلته ما سمع عنها في مجلس والده وضيوف والده، حيث أن الرجال لا تحلو لهم جلسة دون الحديث عن النساء وخاصة الكبار منهم، الذين تضعف قدرتهم الجنسية بمرور العمر وتزيد فاعليتهم الكلامية عن

الجنس، كما يزيد كذبهم النقي والبريء إلا من إيهام السامع بمقدرته القوية.

ويتذكر مرزوق جده حين استيقظ على صراخه مع والد مرزوق يخبره أنه قد قضى الليل ساهراً وبه قدرة على.. ولم يجد أيّاً من زوجتيه قربه وأنه قرر الزواج، ورغم أن الحدث يعتبر عابراً وغير عادي وربما كان خطأً هرمونياً إلا أنه كان يتحدث فيه طول شهرين في كل مجلس مشيراً إلى الحدث على أنه كان البارحة، وأنه عازم على الزواج، ويبدو أن أخطاء هرمونية أدت إلى حالات زواج كثيرة مشابهة وكانت زيجات فاشلة.

بهذه الخميرة من الأحاديث والمفاهيم عجنت عقلية مرزوق فقرر الزواج قبل خمس سنوات وكان يبحث عن امرأة أو طفلة كبيرة حتى يربيها على يديه، وكما يقول المثل الخيل من خيالها ولكن الطفلة تكبر وتعلمها الحياة ما لا يريد الزوج لها أن تتعلمه وتبدأ سلسلة التنازلات من أجل استمرار الحياة الزوجية على أن يحاول أن يشد الحبل مرة فيفاجأ ببعد المسافة ولا يمكن لهذه المرأة أن تعود تلك الطفلة.

لقد تعود على إهمالها للأشياء الصغيرة والخطيرة، فقد كانت مدمنة على إبقاء مفاتيح الأجهزة الكهربائية مفتوحة وكان في كل صباح وبحركة لا إرادية يمد يده إلى المفتاح الكهربائي المجاور للسرير ويغلقه، وتستمر يده بإغلاق المفاتيح مروراً بالحمام إلى غرفة الجلوس، وذات يوم استيقظ من النوم وكعادته مد يده إلى المفتاح المجاور للسرير فوجده مغلقاً من الليلة الماضية فاكتشف أنه قد طلق زوجته، فليس هناك من ضرورة لمتابعة باقي مفاتيح الكهرباء، لأنها مغلقة من الليلة الماضية، فامتدت يده أسفل السرير ليمسك بشنطة السفر، وها هو الآن في اسطنبول ويلتقي مع أبو حسن قارط ليستمع منه إلى مآسي الحياة،ولو طالبوه باليمين لأقسم أنه لم يكن يسعى إليها، ولم تخطر على باله حين امتدت يده أسفل السرير لتمسك بشنطة السفر.

لقد كان قارط يجد متعة بسرد مآسيه، ورغم بعد بعضها إلا أنه يتذكرها كاملة، ربما لكثرة ما يرويها للسياح أمثال مرزوق وغيره فهي من الحديث ومن زاوية أخرى تدر عليه العطف، وحتى حين ينشغل عن الحديث

بموضـوع آخـر فإنـه يعـود بـسرعة إلى نقطـة التوقـف ولا يردد أبداً كلمة أين وصلنا.

ـ حين أصرت زوجتي على خطبـة عائشة بنـت الـشيخ توفيـق إمـام المـسجد بقريتنـا، كـان أخـي مريـضاً علـى سـرير الموت.

ـ يوسف.

ـ لا، أخي الأكبر، وقد مات بعد ذلك بقليل.

ـ وماذا حدث؟

ـ لقد أصرت زوجتي كمـا قلـت لـك فاشـترطت أن لا يكـون هنـاك فـرح ولا أي شـيء سـوى قـراءة الفاتحـة، ووافق الجميع، وطلب مني والـدهـا إقامـة فاتحـة رسميـة، حيـث يقـوم بـدعوة النـاس،وتقـوم ابنتـه العـروس حـسب العـادة عنـدنا، بتقبيـل أيـدي الـضيوف، فيعطونهـا معونـة للزواج، وقلت لوالدها أنت تريد المعونة لابنتك، أنا سـوف أعطيهـا الكـثير ولكـن مـن دون هـذه الحفلـة، فـأخي مريض والناس سوف تأكل وجهي إن فعلت ذلك.

ـ وهل وافق؟

ـ لقد وافق مضطراً ، ولكنه لم يكن مرتاحاً لقراري، وبعـد الفاتحـة الـصامتة، طلبـت مـن يوسـف العـودة إلى اسطنبول، وأنا وأمه سوف نذهب إلى الحاكورة مدة يومين.

خرجنـا نحـن قبلـه مـن بيـتهم، واسـتغل أبوهـا ذلـك، فسأل يوسف عن أمواله، فقال له عندي فلوس مشتركة مع أبي وأخوتي حوالي خمسة وثلاثين ألف ريال سعودي، وخمسة آلاف دولار، فأقنعه أن يأخذ خطيبته وأمها قبل أن أحضر أنا و يشتري لها ذهباً وملابس، فذهب ودخل غرفتي وحين حاولت أخته منعه ضربها وأخذ كل المبلغ واشترى لها ولأمها ذهباً وملابس.

ـ وماذا فعلت يا بو حسن؟

ـ فكرت أنا وزوجتي أن نطلب من يوسف أن يحضر خطيبته مع الذهب والملابس لنرى ذلك ولنفرح بهما، بعد أن أخفينـا عنـه غـضبنا، وقـد كـان قـصدنا أن نأخـذ الـذهب والملابـس ونطردهـا، ولكـن يوسـف فطـن لـذلك فرفض، لقد أضاع كل المبلغ الذي عندي بعد أن أضاع الشقة قبل ذلك.

ـ وتقول إنه حنون ويحبكم كثيراً يا بو حسن.

ـ لقد اصطلح حاله فيما بعد ، فبعد أن طردت زوجته ابنة إمام المسجد زوجتي من البيت، قام يوسف بطرد زوجته إلى بيت أبيها ، واشترط لعودتها أن تحترم أباه وأمه ، وفعلت وهي الآن تحترمنا كثيراً.

ـ وماذا عن والدها.

ـ اسمع هالسولافة ، مرة كان الشيخ توفيق يحدثنا في القرية عن آداب الزواج واحترام الوالدين، فتصدت له زوجتي الأصيلة وقالت له أنت تحدثنا بكلام جميل، ولكن ماذا صنعت أنت حين طلبت من الولد أن يسرق أباه من أجل ابنتك، فزعل الشيخ توفيق كثيراً لأنهم لم يتعودوا أن ينتقدهم أحد ، وكأنهم ملائكة لا يخطئون.

ـ فعلاً جريئة.

ـ أصيلة بنت أصول.

توقف بو حسن قارط فجأة وأشار إلى شقة في عمارة مطلة على الشارع الرئيسي لمنطقة أسواق اللاللي وقال:

ـ هذه شقتي التي كتبها يوسف باسم بنت الحرام.

ـ لا بد أنها غالية الآن، فهذه منطقة تجارية.

ـ لقد اشتريتها بعشرة ملايين قبل سبع سنوات، أما الآن فإنها تساوي أكثر من مئة مليون ليرة.

ـ أعتقد أنك بحاجة هذا المبلغ أكثر من غيرك.

ـ خاصة أن تلك البنت عندها الكثير وهي ليست بحاجة هذه الشقة، فعندها مطعم كبير باسمها، وسيارة، رغم أنها صغيرة في السن.

لقد كان تحت تلك الشقة مطعم متخصص بالدجاج المشوي على الفحم، وقد كانت عيون قارط شاخصة على الدجاج، فطلب مرزوق من قارط أن يأكلا في المطعم الذي تمس رائحته أصحاب الشقق التي فوقه. فوافق قارط بلا تردد، حين ألقى سيجارته، ولا السجائر الكثيرة التي دخنها وهما يسيران معاً. بل وتراه كمن يتعمد أن يخطر فوقها ويتركها تنطفئ ببطء وحين داس مرزوق عقب السيجارة لم يلتفت قارط لتلك الحركة، وكأنه غير معني بها.

وفي طريق العودة بدأ قارط بعرض إمكانياته وما لديه من شقق مفروشة وفنادق أجمل وأرخص، وأنه مستعد لإحضار ولده يوسف لمساعدته، فتذكر صورة يوسف المستهتر، فاعتذر له وأخبره أنه مرتاح بالفندق، وحين ودعه على باب الفندق وعده قارط بالحضور إليه صباحاً حتى يريه أشياء كثيرة وجميلة لم يشاهدها من قبل.

في غرفته سأل مرزوق نفسه عن سبب بقائه في هذه الغرفة الميتة، والحياة من حوله، فغير ملابسه وقرر النزول للتجول في المدينة، مادام الليل في أوله، وما عبر الشارع الرئيسي المقابل للفندق، حتى سمع من يقول له:

ـ أين ذاهب يا هراب؟

التفت مرزوق خلفه وإذا بقارط يبتسم وسبحته تطبق عليها كفان كبيران، وحين علم قارط أن مرزوقاً ليست له وجهة محددة اقتراح عليه أن يذهبا إلى مقهى يرتاده العشاق ليلاً، وتساءل مرزوق أي عشاق مع بو حسن، ومن سوف يعير انتباهاً لرجل انتهت صلاحيته العشقية، وآخر لا يفهم لغة قوم حتى يأمن شرهم.

ـ وهل هو بعيد يا بو حسن؟

ـ لا ، إنه مجرد فشختين.

وبعد أن سارا أكثر من نصف ساعة، أحس مرزوق بتعب لعدم تعوده على السير، حيث اغتالت السيارة رياضة السير.

وصل الاثنان إلى المقهى الذي يقع في حوش مسجد قديم فتعجب مرزوق من ذلك، وأخبره قارط أن البلدية استغلت حوش المسجد الواسع، بأن أجرته كمقهى خاص، حيث أنه يقع في وسط منطقة تجارية، وبذلك تستفيد البلدية من الآجار الكبير والمسجد مازال يؤدي دوره.

كان على المقعد الطويل المقابل لكرسيهما أربعة شباب يتكلمون العربية بصوت عال ، فأحس مرزوق بشيء خفي يتسلل إليه، فقد أحس بالألفة للمكان بالأصوات العربية، فقام للتعرف عليهم بعد أن حاول قارط أن يمنعه حين أخبره أنهم نصابون، وكال إليهم مجموعة كبيرة من النعوت، تبدو وكأنها من محفوظاته حول كل من يقترب من غنيمته السياحية.

شابان عراقيان وجزائري وليبي، إنها وحدة عربية أو تقارب عربي قلّ أن تراه على أرض الواقع، رحبت به المجموعة وعزمت عليه بالشاي والنرجيلة،وظل قارط يأكل نفسه بنفسه وعلامات عدم الرضا تسود وجهه، ويتمتم من بعيد، ربما ببعض الشتائم ولكن عين لا ترى قلب لن يحترق، وأذنٌ لا تسمع قلب لن يجزع.

عرف مرزوق الشابين اللذين ظن أنهما عراقيان كان فلسطينياً ولكن لهجته قريبة من اللهجة العراقية، وكان قليل الكلام عميق الاستماع وجلسته تخفي شيئاً لا يعدو أن يكون عيباً خُلقياً، وقد كان يرصد مرزوقاً باستهجان حين أطال النظر إلى إحدى ساقيه وبادر مرزوقاً بسؤال حتى يدفعه إلى رفع عينيه إلى الأعلى.

- أنا سلامة الجفالي، فلسطيني من مهجّري ١٩٦٧.

عرف مرزوق من كلام سلامة أنه يتوجب عليه أن يعرف بنفسه ولكنه أدرك سلامة قد حقق ما يريد بأن شغله عن النظر إلى رجله الملتوية حين لم يجد الاهتمام بما يقول عن نفسه سواء كان من سلامة الجفالي أو

رفاقـه، ولكنـه لم يحس أنـه حلّ ضيفاً ثقيلاً أو أنهم متضايقون من وجوده، بل أحس بأنهم يعاملونه كما لو كانوا يعرفونه منذ زمن طويل.

عرفت المجموعة أن هذا هو اليوم الأول لمرزوق في اسطنبول، فدار الحديث عن المعالم السياحية والطقس واستراح الحديث طويلاً حين تناول النساء، وبدت الإشارات واضحة لمرزوق حول معرفتهم بأماكن النساء الجميلات، ورغم رغبته بمعرفة المزيد إلا أنه تظاهر بعدم الاهتمام، إلا أن سلامة الجفالي كان يرصد ردة فعل مرزوق بكل دقه للمواضيع التي تحدثت بها المجموعة وعرف أن المخدرات والحشيش جعلت ردة فعل مرزوق استنكارية، أما أحاديث النساء فإنه أخفى شيئاً لم يبح به، وأثناء انشغال المجموعة أشار سلامة لمرزوق بأن يجاوره وما أن جلس قربه حتى بادره سلامة.

ـ أنت مطلق!

تعجب مرزوق من مداخلة سلامة ومن جرأته ومعرفته فحاول الإنكار ولكن بطريقة ملتوية.

ـ لا أعرف كيف حكمت هذا الحكم، ولكن لماذا لم تقل على سبيل المثال أرمل أو أعزب.

ـ يا صديقي إن عمرك صغير ولو كنت أرملاً لكان ذلك من وقت قريب ولكان موضوع النساء يحزنك لأنه يحمل ذكرى لديك، ولو كنت أعزب لما وجدت حرجاً في إعلان رغبتك بالنساء فليس هناك من يلوم أعزب في حالة سفر.

لقد أحس مرزوق أن سلامة هذا يشبه إلى حد بعيد علماء الكلام الذين قرأ عنهم، وأنه من هؤلاء الذين يحسنون التحليل و الإقناع ولم يكن إبراهيم النظام ليغيب عنه وقد ابتدع مذهب المعتزلة وكان أستاذاً بالجدل، وحتى يخفي مرزوق فرحة اكتشافات سلامة مقتدياً بالمثل الصيني الابتسامة على شفاه المهزوم تذهب فرحة المنتصر.

أجاب:

ـ الشباب هو الشباب لا فرق بين متزوج وأعزب أو أرمل.

ـ لـو كـان هـذا الكـلام صـحيحاً لمـاذا قـالوا إذن أعزب دهر ولا أرمل شهر.

ـ لابد أنها لضروريات السجع، كما حدث لقاضي مدينـة قـم حـين قـال لـه الـوالي، أيهـا القاضـي بقـم قـد عزلناك فقم.

ـ فأجابه القاضي لم تعزلني إلا القافية يا مولاي.

ـ أعرف هذه القصة جيداً.

ـ ولكنك لست قاضياً ولسنا في قم، أنت كما قلت لك فلماذا هذا الالتواء، إن المكابرة من أكبر مآسينا، وهـذه الرجـل الملتويـة الـتي شـدتك أكثر ممـا شـدتك لنـا ملامحنا أو وجوهنا هي ضحية المكابرة يا أيها العربي المكابر.

أحس مـرزوق أنـه بـدأ يـدخل فيمـا أثـاره حقـاً وأطـرق حتـى لا يفـسد تكملـة الحـديث وحتـى لا يجـد سـلامة مجـالاً لتغـيير الحـديث إذا مـا بـادر مـرزوق بـسؤاله عـن السبب أو المكابرة الـتي تحـدث عنهـا، فـلا يـصعب علـى سلامة إذا مـا أراد أن يغـير الحـديث بالاتجـاه الـذي يريـد.

فأكمل سلامة حديثه بعد أن أحس أن الحوار أصبح ثنائياً، فبقية الشباب الذين لم يعرف مرزوق أسماءهم كانوا في حديث هامس.

ـ بعد أن أنهيت دراسة الثانوية العامة في غزة، حيث كانت تحت الإدارة المصرية في تلك الفترة، حاولت الخروج منها بأي طريقة لما وجدناه من سوء المعاملة.

ـ ومن المصريين!

ـ ومن غيرهم.

ـ ولكن جمال عبد الناصر كما يعرف الجميع كان يعطي امتيازات خاصة لطلبة غزة في الجامعات والوظائف في مصر.

ـ هذه حقيقة ما كان يحدث خارج غزة أما في الداخل فإننا كنا نعيش حالة رعبٍ دائم، فحينما تغضب القيادة في مصر من الشيوعيين كان البلاء يحل على الشيوعيين في غزة و يساقون إلى السجون بدون أسباب، وحينما تغضب القيادة من الإسلاميين، يكون نصيب الإسلاميين في غزة مثل نصيب إخوانهم في مصر.

ـ وهل كان جمال على علم بذلك.

ـ هذا السؤال الذي يطرحه الجميع ولا تجد إجابة شافية له، فحين تقرأ لمحمد حسنين هيكل تراه يقول إن جمال لم يكن على علم بذلك وإن المخابرات كانت تقوم كدولة بنفسها، وحين تقرأ للمعارضين له وخاصة الإسلاميين تراهم يقولون إنه على علم بكل شيء. لقد كنا نحب جمالاً بلا شك، ولكن لا يمكن أن أتصور أنه لا يعلم بما كان يحدث لنا، هو الرئيس وكل شيء يجب أن ينتهي إليه.

ـ إذن يبقى السؤال بلا إجابة شافية.

لقد جاء إلى مصر أحد الرجال الذين طالبوا بخرج الاستعمار الإنجليزي من بلده وقد كشف في أحد جلسات الغداء على نهر النيل لمجموعة من أساتذة الأدب والضباط السوريين الذين آثروا البقاء في مصر بعد الانفصال، أنه حين لجأ مصر هرباً من الإنجليز وأعطاه جمال عبد الناصر منزلاً فخماً وخصص له برنامجاً إذاعياً وآخر تلفزيونياً وبعد إذاعة الحلقة الأولى في

الإذاعة جاءه من يخبره أن جمالاً يقول لك اجلس في بيتك ولا تكلم أحداً، لأن البرنامج الإذاعي الذي تكلم فيه قد أغضب الإنجليز وهو لا يريد غضبهم، وحين طلب تفسيراً لذلك، فهو قد لجأ لمصر لمحاربة الإنجليز، وعن معنى بقائه في البيت، عرف أنها إقامة جبرية، وبعد تسعة أشهر استأذن القيادة بالسفر فوافقوا له فذهب إلى لبنان.

ويبقى جمال عبد الناصر سراً، ويبقى أكثر من سؤال بلا إجابة شافية.

لقد كان لسلامة الجفالي أخ استشهد في عملية فدائية، وكان له راتب من منظمة التحرير الفلسطينية، وأصبح هناك نوع من الامتياز لأسر الشهداء بالتعليم والوظائف، وقد قضى سلامة الجفالي ثلاث سنوات بعد الثانوية العامة متسكعاً في شوارع غزة بلا عمل ولا دراسة، ولمعرفته بالحمام فقد كان يقضي معظم وقته في سوق الحمام يبيع ويشتري أحياناً ويشارك في المسابقات الخاصة بالحمام.

بعد ثلاث سنوات استطاع الحصول على منحة دراسية إلى باكستان لدراسة الطيران، حيث أن المنح تكون من نصيب المسؤولين وأصحاب الواسطات ثم بعد ذلك أصحاب المجاميع العالية ثم أسر الشهداء، وقد حصل على المنحة رغم عدم رغبته بالطيران إلا أنه في غياب الفرص يصبح ظل الغيمة العابرة فرصة للاستظلال تحتها.

لم يكن التعارف بين مرزوق وبقية الشباب الليبي والجزائري والعراقي كما كان سلامة الجفالي الذي أحس مرزوق بأن هناك نوعاً من التقارب أو التفاعل معه، فاستأذن مرزوق من الشباب للذهاب إلى دورة المياه، وبينما هو في الحمام سمع صوتاً متخبطاً في الخارج، وهرولة وسمع صوت أبو حسن قارط يناديه من خارج الحمام.

ـ مرزوق يا ابني هل أنت هنا.

تضايق مرزوق قبل أن يجيبه، فقارط هذا لا يعرف أي معنى للأصول فأجابه بضيق:

ـ نعم ماذا تريد ، هل تريدني أن أخرج لك عارياً.

ـ اسمع يا ابني لا تخرج من الحمام حتى أقول لك، لقد هجمت الشرطة على الشباب الذين كنت معهم، لا أعرف السبب ولكن يبدو أنهم نصابون، سوف أعرف ذلك وأعود لك، احذر الخروج حتى لا يأخذوك معهم.

بدأ مرزوق يتكهن بالأسباب، فهي كثيرة على الإنسان العربي، أبسطها أنه إرهابي، ولكن مرزوقاً حاول أن يكون مرتاحاً في بيت الراحة، فهو رغم براءته قد يصعب عليه إثباتها لو تمكنت الشرطة منه وهو معهم.

عاد أبو حسن قارط إلى مرزوق وطلب منه الخروج، وأخبره أنهم على صلة بانفجار قنبلة قبل أسبوع في إحدى الشركات السياحية، وكان وراءها حزب العمال الكردستاني، وأن الشرطة عثرت على كمية من الحشيش معهم، ولم ينس قارط أن يحمل مرزوقاً فضل حمايته من المصيبة، فانهال عليه بالنصح وطلب منه تجنب الشباب العربي، ولكن حزن مرزوق لم يكن

ليجعله مستمعاً جيداً لتلك النصائح، والصدمة له في أول أيامه في اسطنبول قد تخلف نتائجها السلبية على نفسيته، وما يعرف مرزوق عن نفسه أنه إذا ازدحمت عليه المواعيد والأعمال فإنه يتركها جميعاً، وإذا أقبل على مشروع وبدأه بالنحس فإنه سرعان ما يؤجله وأنه سمع مرة ولا يذكر ممن أن أي معضلة يجب أن يعطيها خمس دقائق للتفكير في حلها فإذا لم يستطع فإن حلها من عند اللّه لأنها أكبر من تفكيره فلا يجب عليه أن يشغل باله بها إلى أن تحل من قوى خارجة عنه، فقرر أن ينسى المشكلة كاملة حين لاحظ أن أول أيامه في اسطنبول بدأ بالمصائب التي حلت بقارط وتاريخه الحافل بالصدمات والأحزان، وانتهى بجريمة كاد أن يناله منها على أقل تقدير عدة ركلات من رجال التحقيق، فطلب من قارط الخروج من اسطنبول غداً إلى أي مدينة أخرى.ولكن قارطاً أقنعه بضرورة قضاء بعض الأيام في اسطنبول قبل الذهاب إلى مدينة كوك شدره ويلوا.

الفصل الثاني

مـرَّ أسـبوع علـى مـرزوق في اسـطنبول، والحـاج أبـو حـسن قـارط لا يفارقـه إلا إذا تأكـد أنـه أغلـق عينيـه لينام، وقد توطدت العلاقة بين الاثنين كثيراً، فمـرزوق ينظر إلى قارط على أنه صديق مهم في هذه السفرة، أما قـارط فإنـه يعتبر مرزوقـاً ولـداً صـغيراً بحاجـة إلى رعايـة ولكنهـا رعايـة واهتمـام مقابـل مـردود مـادي، وفي نهايـة الأسبوع في عطلة الأحد كانا معاً في حديقة الحيوان، حيث تتجمع بها أعداد كبيرة من البشر، وبينما يلتقط مرزوق الصور فاجأه قارط.

ـ هذا هو صاحبك الأعرج فلنبتعد حتى لا يرانا .

ـ من تقصد؟

فأشـار مـرزوق لرجـل يـسير بـبطء، بعـرج واضـح، ولكـن مرزوقـاً لم يعرفـه مـن ظهـره، إلا أنـه عرفـه حـين أخـبره قـارط، فوجـد مـرزوق نفسه منـدفعاً دون إذن مـن قـارط إلى سـلامة الجفـالي، عانقـه وكـأنهمـا يعرفـان بعضهما منذ الطفولة، وقد عرف مرزوق أن قارطاً التقـى بسلامة وقد سأل سلامة عن مرزوق ولكن قارطاً أخفـى عنه ذلك، ربمـا كمـا هـي عـادة قـارط مـن بـاب الحـرص عليه.

ـ ماذا حـدث في تلـك الليلـة وأيـن بقيـة الـشباب الـذين كـانوا معك؟

ـ أنـا خرجـت في اليـوم التـالي لأنهـم لم يـستطيعوا أن يثبتوا عليّ شيئاً.

ـ يثبتون ماذا؟

كـان سلامة الجفالي قـد حـصل علـى منحـة دراسـية في باكـستان لدراسـة الطيران الحربي، وفي الـسنة الثالثـة بينمـا كـان في إحـدى الطـائرات حـدث خلـل في المحـرك مما اضطره إلى القفز بالمظلة خـارج الطـائرة، ونظـراً لأن

التقنية قديمة وضعف إمكانيات الصيانة في الطائرات الحربية في بعض الدول، فقد أصيبت ساق سلامة اليمنى بكسر كبير أثناء خروجه من الطائرة ونتيجة لذلك تقطعت أعصاب الساق، وبعد ثلاثة أشهر في المستشفى العسكري في لاهور اكتشف الشلل الجزئي وضمور كامل في الساق اليمنى.

وكالكثير من المسلمين الذين يتعاملون مع الدنيا على أنها فانية ولا ضرورة للفلاح فيها ويجب العمل للآخرة، في حين أن الفلاح مرتبط بالآخرة وليس بالدنيا، فقد عكف على المسجد الكبير في لاهور، حيث تتجمع الكثير من الجماعات الإسلامية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، من التبعية والمساندة للأمر الواقع إلى رفض كل ما هو سائد وواقع، فتعرف إلى جماعة الدعوة والقاديانية والمحمدية وطوائف كثيرة يجمعها هذا المسجد، وقد لاحظ أن هناك عدة صلوات للجماعة، وتقام في وقت واحد ولا يصلي أحد من جماعة مع جماعة أخرى، بل وتعتبر كل جماعة أن صلاة الجماعات الأخرى باطلة.

فكفر سلامة الجفالي بكل الجماعات حين اضطر لتعاطي الحشيش، ولم يجد صعوبة للانزلاق إلى الطرف الآخر، حيث أن الشارع الجنوبي للمسجد الكبير يسمى بشارع اللؤلؤة، وما أدراك ما شارع اللؤلؤة، حركة أقل من المستوى العادي في النهار، بل إنها حركة شبه ميتة، وما أن تأتي الساعة الثانية عشرة ليلاً حتى يصبح هذا الشارع مدينة أخرى، مدينة تسكنها وتبعث الحياة فيها أجمل نساء لاهور، شارع بلا بيوت مستقلة، كله غرف أرضية وعلوية وكل غرفة مغلقة بستارة في الغالب وداخل هذه الغرف مجموعة صغيرة من العازفين ومجموعة من فتيات الرقص الفلكلوري، وتستأجر هذه الغرف بالساعة ويبدأ العزف والرقص لشخص أو شخصين مع بداية رميه للروبيات الباكستانية على الأرضية الصغيرة في الوسط ويسرع الإيقاع والرقص مع كمية النقود الملقاة، ويصبح الضيف مشغولاً برمي النقود أكثر من الفرجة والاستمتاع، ويمكن توفير العملة الصغيرة من خلال صرافين خارج الغرف التي تستظل المسجد الكبير.

وتصبح وسائل جذب رواد الشارع أكثر إغراءً من الرقص والموسيقى حيث تطلق بعض النساء في الأدوار العليا شعورهن إلى الأسفل بطريقة مثيرة حتى تجذب الرواد إلى الغرف العليا، وهناك من تدعوك بالابتسامة العاشقة والنظرة الظمأى، وما أن يدخل الضيف حتى تنتهي كل فنون الجذب والإغراء ويبدأ فن القص العفيف، حيث لا يسمح للضيف بالتمادي، ويدار هذا الفن تحت عيون الشرطة التي لا تتوانى أثناء تجوالها في الشارع عن رفع الستارة للتأكد من عدم وجود أي نوع من أنواع الكبائر، كالخمر والزنى، لأنهما محرمان، خاصة وأن الشارع والمسجد متلاصقان.

هذا التناقض العجيب في لاهور، ألقى بظلاله على شخصية سلامة الجفالي، فبعد أن كان فتى رياضياً ومشروع طيار لم يكتمل، حيث كان يعرف نفسه للأصدقاء على أنه طيار إلا ربعاً، فقد كانت فترة الدراسة أربع سنوات أنهى منها ثلاثاً ثم أصيب في الحادث، وبقي فترة طويلة ينفر من كلمة ربع، لقد أصبح رجلاً بساق واحدة والثانية مهمتها إسنادية فقط لا

يمكنه أن يثق بها أو أن يؤمنها رأساً يقول عنه دائماً إنه ثقيل بما فيه من أفكار، وحين تكبر مأساة إنسان تراه يفكر بأشياء تافهة، ويسأل أسئلة سخيفة، ولا يعرف علماء النفس لماذا يلجأ إليها الإنسان الذي يمر بصدمة كبيرة، فمن مشاغل واهتمامات سلامة الجفالي معرفة الشعور حين يصعد الإنسان السلم قافزاً خطوتين خطوتين، ولأنه بالكاد يصعد درجة درجة فقد كان يحزنه أن يقفز من يمشي معه على السلم، أو إذا استعجل في مشيته.

ـ إن فشل أجهزة الأمن في معرفة المجرمين والمتهمين بالقضايا يجعلها متخبطة وتحاول أن تلقي التهمة على أكثر الأشخاص ملاءمة للقضية، فما بالك بالقضايا الأمنية والإرهاب، وهل هناك أنسب أو أكثر ملاءمة من الإنسان العربي لإلصاق التهمة به.

ـ وما دخل العربي بحزب العمال الكردستاني يا سلامة؟

ــ بصراحة يا مرزوق الإنسان العربي وخاصة الفلسطيني الذي فقد أرضه أصبح حاقداً على الركود العالمي، ومؤيداً لكل الثورات في العالم، وأنا شخصياً متضامن مع حزب العمال الكردستاني، ومع قلب الدين حكمتيار في أفغانستان وجماعة اليونيتا، إنني متضامن مع كل ما من شأنه أن يحرك الراكد.

ـ وما هي حدود هذا التضامن مع هذه الثورات، هل قتل أبرياء في محطة للقطارات أو مكاتب السياحة تعتبره إنجازاً ثورياً.

ـ إنني بصراحة أمقت هذا الكلام الذي يردده الإعلام الغربي والعربي وأكره مذيعي البرامج التلفزيونية، فهؤلاء رغم ضحالتهم الثقافية أصبحوا معياراً للوطنية وأصبح مذيع التلفزيون العربي هو الذي يحدد هامش الحرية و الكتابة للكتاب من خلال بياناتهم، وفي بعض الأحيان يقدم كتالوجاً خاصاً للشعراء والكتّاب، يحدد فيه المواضيع التي يجب أن يكتبوا فيها، ومنطقك هذا يا مرزوق أصبح مثل منطقهم في فهمهم للأحداث.

كان سلامة الجفالي على علاقة حب مع فتاة فلسطينية وكان قد اتفق معها على الزواج بعد انتهائه من دراسة الطيران، وبعد الحادثة التي منعت سلامة من إكمال دراسته تزوجت من مقدم نشرة أخبار في أحد التلفزيونات العربية، وكانا في سنوات حبهما الأولى قد اتفقا على أن يلبس كل واحد منهم ساعة اليد في اليد اليمنى إذا ما كان زعلان من الآخر، وكان كثيراً ما يلبسها في معصم اليد اليمنى لكثرة زعله، ولأنه الآن في حالة زعل دائم منها فقد علقها في يده اليمنى عفوياً، وبقيت كذلك منذ حادث الطائرة.

الساعة في يده اليمنى

تخفي أحزاناً، أصغرها

أكبر من أكبر مأساة

كبلاد ضيّع آخرها

نادى

لزمان ناداه

وجسور سنين يعبرها

والزاد بكاءٌ أو آه

لقد كان قارط مستمعاً غير جيد، لأنه كثيراً ما حاول أن يوقف الحوار بين الاثنين وكثيراً ما حاول أن يقاطع أفكار سلامة متعمداً الاستفزاز في بعض الأحيان، خاصة وهو يعرف نفسية الإنسان العربي والخوف الكامن في أعماقه، فسلامة الجفالي غريب في اسطنبول، وشبه متهم بقضية أمنية، وقد حاول كثيراً بكهن العجائز أن يضغط على هذه الأزرار، ولكن قمع مرزوق المهذب له والنظرات الاستنكارية كانت كفيلة بوقف هجوم قارط على سلامة الجفالي الذي ليس له ما يبرره.

ألقى قارط كعادته سيجارته دون أي محاولة لإخمادها وهم سائرون في حديقة الحيوان، ولا يمكن اعتبار حركته دليل غضب لأنه لم يحدث أن أطفأ سيجارة من قبل رغم شراهته في التدخين، وقد دعا مرزوق سلامة أن يرافقه إلى مدينة يلوا نهار اليوم التالي،

ولكن سلامة اكتفى بأن أعطى هاتفه لمرزوق ليحادثه من هناك معتذراً له بأنه لا يريد أن يكون ضيفاً ثقيلاً، ووعده بزيارة لرؤية المدينة أثناء إقامة مرزوق هناك، و أحس سلامة بإصرار عجيب يفاجئه لزيارة مدينة يلوا حين بدأ قارط بالحديث سلباً عن المدينة لمحاولة تأكيد اعتذار سلامة في نفسه، وبكهن العجائز أيضاً تكلم عن ندرة سيارات الأجرة مما يضطر الزائر إلى السير على قدميه مسافات طويلة وملمحاً بالوقت ذاته إلى ساق سلامة وإلى وعورة الطرق، فختم سلامة حديثه إلى مرزوق :

ـ يا زلمة، ألم تجد غير هذا الختيار، إنه من مخلفات الحرب العالمية الأولى، وقد انتهت صلاحيته من زمان ، بطّل هذا البطر وبلا مترجم بلا بطيخ، لأنه لو زودها شوي، راح أضربه.

قد حاول مرزوق أن ينهي الحوار ولكن قارطاً اليقظ بادر سلامة :

ـ تضرب مين يا أعرج، لك إذا بنفخ عليك بتطيح.

ـ أنا بالعند فيك سوف أذهب إلى يلوا وسوف أقعد مع مرزوق بغرفته، وسوف آكل وأتجول على حسابه، وموت بغيظك.

ورغم أن سلامة لم يرد على قارط كما كان متوقعاً، إلا أنه وبخبرته في الحياة أدرك أن هذه الكلمات كانت كفيلة بأن تقضي على قارط، وكان من الممكن أن يموت قارط بغيظه كما قال سلامة، فما أن بدأ يتخيل منظر الغداء الذي سوف يحاسب عنه مرزوق و المصاريف الأخرى، وهو الذي يشعر أن اللّه قد خلقه لغاية واحدة يجب الحفاظ عليها ، وهي مساعدة السياح والمحافظة على أموالهم وكأنها ماله الشخصي، حتى بدا ساهماً، وأمسك به مرزوق وهو يخفي ابتسامة لما قاله سلامة، وكأن كلمة سلامة أفرحته بعض الشيء، فحصار قارط له كبير ومعاملته له تضايقه أحياناً.

في صبيحة اليوم التالي كان مرزوق وقارط في الباخرة متجهين إلى يلوا، بعد أن نصح قارط بهذه الوسيلة معللاً الرخص والسرعة والراحة ومحذراً من

سـلامة الجفـالي ومتوعـداً بـأن يخـبر عنـه أخـاه يوسـف ليـسجنه، ولكـن مرزوقـاً حـذره مـن ذلـك متبعـاً أسـلوب الجـرزة والعـصا، وبعـد أن وصـلا إلى يلوا توجها مباشـرة إلى قريـة كـوك شـدرة الـتي تبعـد مـسافة عـشر دقـائق بالـسيارة، ولا يـشعر الزائـر بالمـسافة لـيس لقـصرها فحسب، بل لجمال الطريق المغطى بالأشجار، ولضخامة الأشجار على الجـانبين، فقـد التحمـت أوراقهـا، فأصبح الـشارع مظلمـاً في النهـار ولكنهـا ظلمـة محببـة، وبـائعو العسل على جانبيـه بـألوان العلـب الزاهيـة يضفون سـحراً وخصوصية إلى الشارع الضيق.

على مدخل القريـة الـصغيرة يقـف فنـدق جميـل بلونـه الأبـيض، دخـل قـارط وتبعـه مـرزوق وقـد رحـب جميـع العـاملين بقـارط وكـأنـه صـاحب الفنـدق، ولم يغـب عـن البـال أن قـارطاً رجل سياحة، ومعرفة الفنـادق فيـه ليـست بمـستغربة، فاسـتأجر مـرزوق غرفـة مطلـة علـى الخـضرة الممتدة خلف الفندق، في حين وجـد قـارط غرفتـه جـاهزة مع غرف العاملين بالفندق، لقـد كـانت اسـطنبول ورشـة عمـل كـبرى، المرافـق الـسياحية، الـشوارع، الأسـواق،

إنها لا تصلح إلا لسياحة النساء، اللواتي يعتبرن السياحة رحلة تسوقية، أما مرزوق فإنه يبحث عن الاستجمام والراحة النفسية، فأين يجد الهارب من الهموم ملاذاً يصلح نفسيته التي شوهتها الأحزان، إن لم تكن كوك شدرة هي الملاذ، وبمن يحتمي من ينكسر إذا اتكأ على ظله، إن لم يحتم بغابات كوك شدرة، وبأنسامها الصيفية الباردة ليلاً، هذه القرية على موعد معه، إنها أكبر من أن تناصفه حزنه، إنها أكبر فلتدخل موسيقى المساء، بزوايا صدره المكتظ بالحزن وبالليل الخرافي الطويل.

تمشي على وجهي خطوطُ الأمسِ

تقرأ في عيون العابرين وأنتقي

صورَ العذابْ

فكأنني للأمس خاتمةٌ

كأني من بقايا الشّعرِ

أو للشعر قد أشرعتُ بابْ

لا الليل يجهلني ولا صبحٌ توسّم في غدي

إلا وأدركني كتابْ

سهرت به في الليل عاشقةٌ

وقاسمها عذابي

ربما عرفت بما بي

ربما أو ما أقول

فمشى البردُ على أطرافها ، مرَّ

كما مرت بليلٍ واحد كل الفصول

وأنا أمشي صدى أنفاسي الحرى بدا دون جوابْ

وبكت قربي أضواءُ الطريقْ

مُذْ أحستْ بخطا الراحل في صمت الغيابْ

وتبناها ذبولٌ لا تطيقْ

لم تكن القرية بحاجة لأكثر من عشر دقائق لتعرف زواياها المختبئة على طرف الشارع الوحيد فيها ، وحمامات المياه المعدنية الأشهر في تركيا ، حتى

أصبحت حمامات الترمال مقصداً لكل الأتراك على بعد مسافاتهم لقناعتهم بالشفاء فيها من أمراض العظام والمعدة، إن حمامات الترمال مختفية بين المنازل والأشجار وكأنها مرتابة من أمر ما، ورغم شهرتها الخارجية، فإنها من الداخل أكثر تواضعاً وبساطة من ملابس أبناء القرى والأرياف حين يدخلون المدن وقد ارتدوا أغلى ما لديهم.

لقد وجد مرزوق ألفة كبيرة مع الأشخاص والأمكنة في كوك شدرة وكان من الصعب على قارط أن يكون كثير الكلام عن القرية، لبساطتها وصغرها، وقد وجد متسعاً من الوقت ليستمع من مرزوق حين يتحدث، ومن المفارقات أن قارطاً لا يبدي أي تعاطف مع مآسي غيره، فكأنه قد وصل إلى الاكتفاء الذاتي، أو أن مآسيه قد أعطته حصانة من مآسي الغير فلا تجده يعيرها اهتمامه، حتى أدرك مرزوق ذلك وتوقف عن الحديث بخصوصياته، وما بقي عالقاً في ذهن قارط في الأيام الأولى في القرية هو كيفية التصرف مع سلامة الجفالي، لقد أعطى اسمه

ومواصفاته للعاملين في الفندق لكي يمنعوه من الدخول إذا ما فاجأهم يوماً.

لقد كان قارط على حذر من وصول سلامة الجفالي، بينما كان مرزوق يتحاور معه كل يوم ولأكثر من مرة بالتلفون، وكان سلامة الجفالي قد اطمأن لمرزوق وأحبه بصدق فأخبره بأنه ينتمي للكثير من الجمعيات و المنظمات العربية والدولية، وأن مهمته محددة بجمع التبرعات من الأشخاص و المؤسسات وأن عمله هذا هو عمل إنساني، حتى الأعمال الإرهابية التي تقوم بها بعض المنظمات، لم يجد سلامة حرجاً في التعاطف معها، وإنه كان يذكر بتباهٍ كيف ساهم بمساعدة الأرجنتين في حربها مع بريطانيا حول جزر فوكلاند وأن بعض الدول قد قدمت مساعدات عينية ومادية من خلال وسيط شخصي وذلك لحرصها على علاقتها مع بريطانيا والكتلة الموالية لبريطانيا. إن سلامة الجفالي بعد أن خسر ساقه والفتاة التي أحبها، أحس بأن الدنيا خالية مما يستحق أن يعيش من أجله، فنذر نفسه لهذه المهمة الصعبة، ولم يجد مرزوق حرجاً

من أن يصارحه بأنه على قناعة بأن ما يقوم به سلامة هو مراهقة سياسية متأخرة وأنه يتوجب عليه أن يتجاوز هذا المنحنى النفسي الصعب ويبدأ ثانية، ففي كل يوم نحن على موعد مع بداية جديدة، شئنا أم أبينا، وبقيت العلاقة بين الاثنين قوية رغم قصر الفترة بينهما واختلافهما في التفكير حول الحياة ومفهوم الإنسانية.

خرج مرزوق من غرفته بعد الغروب كعادته في هذه القرية، حتى يستمتع بلسعة برد المساء في حديقة الفندق، ليجد السيد رحمي صاحب الفندق بانتظاره، فقد كان حديث مرزوق يمس أوتاراً دافئة لدى السيد رحمي خاصة إذا كان الحديث عن تعدد الزوجات، فالسيد رحمي رغم كبر سنه وشعره الأبيض له علاقات نسائية كثيرة، وزوجة واحدة حسب القوانين الأوروبية لبلد مسلم، فكلمة الطلاق فقدت معناها، وأصبحت المكاتب الحكومية هي المختصة بهذه الكلمة، وكثيراً ما كان مرزوق يداعبه حين أخبره أنه متزوج أكثر من ثلاث، وأنه طلق عشر مرات، فتتطاير الحسرات من صدر رحمي على ضياع القوانين التي تجيز

لـه الـزواج مـرة أخـرى، والإنجـاب مـرة رابعـة. وكانـت وسـيلة التفـاهم بينهمـا ضـعيفة كلمـة إنجليزيـة موصـولة بضمير من اللغـة العربيـة متعلـق بإشـارة من اليـد، وتـصل الرسـالة.

ولم يجد مرزوق حرجاً مـن الـكتابـة والرسـم أحيانـاً على دفتره الأحمر الصغير، وكان رحمـي بعـد أن يلـتقط المعلومة، أو بعد أن يتخيل أنه أدرك ما يعنيه مرزوق يقـوم بالترجمة إلى أصدقائه الـذين يشبهون التنابـل، لا كلمـة ولا إشارة فقط ابتسامة وتناول المشاريب الـتي تـدور علـى مـدار الدقيقـة علـى طاولـة صـاحب الفنـدق، وأبـو حسـن قـارط غائـب عـن هـذا الـشراب المجـاني، لا بـد أن يـوبخ نفسه كثيراً على هذا السهو غير المقصود، فهنـاك أمـور يتقن قارط فن السهو عنها عن عمد، كأن تـصل فـاتورة حسـاب، أو حين ينتظر صاحب سيارة الأجرة أجرته.

وفي غمرة الضحك والنشوة من أحاديـث النـساء الـتي لا يملكها كبار السن، وثبت أمـام مـرزوق فتـاة تتحـدث الإنجليزية بطلاقة.

ـ هل يمكنني أن أقدم لك أي خدمة؟

وسيطرت الحيرة والخجل على مرزوق، فماذا تريد هذه الفاتنة، وأي نوع من الخدمات لديها، فابتسم لها ابتسامة خبيثة محاولاً التلميح لها أنه ليس حراً في هذه اللحظة، فلم تمهل ظنونه للإبحار فيما لم تقصده وعاجلته.

ـ أنا قريبة رحمي صاحب الفندق، ويمكنني أن أقوم بالترجمة بينك وبينهم، لأنني كنت أراقبك من بعيد وأنت تستعمل الإشارة معهم، لأنهم لا يفهمون غير اللغة التركية.

وبخبث العازب حين يلتقي بالجمال الصارخ، أخبرها أن لديه الكثير الذي يريد قوله للسيد رحمي، ويمكنها الجلوس بجانبه، فقد بدا السيد رحمي أكثر من رجل طيب وودوداً في عيون مرزوق، ما دامت هذه الواقفة قريبته، وقبل أن تجلس قالت:

ـ اسمي "نيفرا" وأنا هنا للاستجمام بعد امتحانات السنة الثالثة قسم اللغة الإنجليزية.

تذكر مرزوق لوهلة أن نيفرا خريجة أدب إنجليزي إلا ربع وحين خطر بباله سلامة الجفالي ذلك الطيار إلا ربعاً أخفى هذه الصورة من ذاكرته، حين لاحظ أن نيفرا هي اسم على مسمى، فهي نافرة النهد والشعر وأشياء أخرى، وأن لجسدها لغة خاصة لم تتضمنها قواميس اللغة، وأن له حركة دائمة، فما أن سحبت الكرسي وجلست، حتى وجد أن جسدها لم يهدأ مباشرة فوق الكرسي، فقد ظلت أشياء كثيرة تهتز وتخف حركتها ببطء فكأنها في حالة قلق، أو أنها في حالة ارتعاش جميل.

نسي مرزوق السيد رحمي وتنابلته، وبقيت نيفرا هي الأهم عنده، لأنها تتقن اللغة ولا يحتاج معها إلى إشارات أو رسوم، ولأن وذلك هو الأهم، لجسدها ثقافة أخرى وهو حريص على أن ينهل الثقافة بكل ألوانها وتعقيداتها، وقد قامت بترجمة آخر الحديث الذي بدأه مع السيد رحمي، وقد حرص مرزوق على الاختصار، حتى يمكنه أن يبدأ أحاديث أخرى، أكثر دفئاً مع نيفرا في هذه الليلة الباردة، وأحس السيد رحمي وتنابلته

أن الحديث باللغة الإنجليزية يشبه السعال، وأن نيفرا بدأت تترجم لهم حديثاً يتناول أشياء أخرى غير تعدد الزوجات، وحين قال لها مرزوق إنه يشعر أن جمالها أشعره بنقص مفرداته وبضعف لغته وأنها ربما تكون معنى أو صورة لا كلمات لها قالت له إنها لن تترجم هذا الكلام، وأنها ستحتفظ به لنفسها، أحس أنه لامس شيئاً لم يكن يعتقد أنه سيدركه بهذه السرعة، ومن هذه النافرة في كل شيء.

بدأ أصحاب السيد رحمي بالانصراف بعد أن تمنوا مساءً طيباً وتبعهم السيد رحمي حتى فرغ المكان إلا من سيدة سمينة تجلس في زاوية الحديقة عند السور الخشبي، متكئة بذراعها الثقيل على السور وعيناها على مرزوق ونيفرا، ولاحظ مرزوق ذلك كما لاحظ أن الكرسي الذي تجلس عليه يبدو صغيراً، حيث أن الفائض من شحمها على جانبي الكرسي يعادل وزن نيفرا مرتين، وقبل أن يبدي أي تعليق، أخبرته نيفرا أنها جدتها، وهي ترافقها في كل مكان، ومن أجل نيفرا أحس مرزوق بخفة دم الجدة رغم صمتها، لأنه يؤمن

بقاعـدة أن الإنـسان البـدين غالبـاً مـا يكـون ظريفـاً ، وأحس بود تجاهها.

تحـدثت نيفـرا عـن الحـب، ومفهومهـا لـه واضـطر مـرزوق أن يتنـازل ويخفـي الكـثير مـن آرائـه وصـولاً إلى التوافق مع آرائها ، إلى أن قالت إن الحـب يجـب أن ينتهـي بالزواج، هنا أعلن مرزوق اختلافه معها ، وأخبرهـا أنـه لا يـضر أن ينتهـي الحـب بـالزواج، ولكـن أن لا يكـون الزواج غاية، لأنـه بالتـالي يـصبح مـصلحة، وأنـه يجـب أن يكون الـزواج تحـصيل حاصل، وليس سـعياً ، ودليـل علـى ذلك أن كل الأزواج لا يعيشون حالـة حـب تـوازي حـب مـا قبل الزواج.

أحـس الاثنـان أنهمـا قريبـان مـن أفكـار بعـضهما ، ويلاحـظ مـرزوق الجـدة في حالـة ابتـسام دائـم، وكـأنهـا فرحـة لأن نيفـرا تتحـدث لغـة أخـرى، ربمـا لأن نيفـرا لم تـزل صـغيرة بعـين الجـدة ، وخـلال هـذا الحـوار الـشائق، وصـل مـصطفى ابـن الـسيد رحمـي وعـرف نفسه لمـرزوق حيـث أن نيفـرا كانـت تعرفـه، وشـاركهما حـوار الحـب والـزواج، وقـد أعجبـت آراؤه مرزوقـاً بعـض الـشيء فقـد

كـــان يـــرى أن المــرأة قاتلــة للفنـــان إذا كانـــت زوجـــة، وصانعة لـه إذا كانت غير ذلك، وأن اللّـه أرسـل الرسـل جميعـاً مـن الرجـال، ولم يرسـل امـرأة واحـدة، وكانـت نيفرا تحـاول أن لا تعير انتباهها لكـلام مصطفى حيث أنه بدا مألوفاً إليها.

كان مصطفى يكتب الشعر وكلمات الأغاني قبل الـزواج، ولكنـه بعـد زواجـه مـن "ميمـا" لم يكتـب إلا قصيدة واحـدة يرثـي بهـا أشـعاره الـتي أضـاعتها زوجتـه، حين قامت بنقل جميع أوراقـه وكتاباتـه مـن الخزانـة إلى كرتون وسرعان ما ضاع ما فيه وذلك لتفسح مجالاً في الخزانــة لملابـسها الجديـدة، ومــا أحزنــه أكثــر مــن الـضياع، أن أغلـب القـصائد والأغـاني كتبهـا مـصطفى بزوجتـه قبـل الـزواج، وأنهـا كانـت تـدعي أنهـا تحفظهـا بقلبها، وحـين طلـب منهـا أن تمليهـا عليـه مـن ذاكـرتهـا، لم يجـد شـيئاً، وأن كـل مـا كانـت تقولـه قبـل الـزواج كـان ادّعاءً ووهماً صدقه مصطفى واكتشفه متأخراً.

كانت نيفرا تعرف الكثير عن قصة حب مصطفى وميما ، وقد كان زواجهما قبل عامين فقط، حتى أنها بدأت تخاف من الزواج إذا كان بهذا السوء.

فتدخلت الجدة لتقطع الحوار حين طلبت من نيفرا المغادرة معها ، ولكن نيفرا لم تكن تريد أن تذهب لمعتقل الجدة ، وتترك هذا الحوار الذي تشعر أنها تضيف فيه شيئاً ، فأخبرت جدتها أنها سوف تبقى بعض الوقت وأن مصطفى سيقوم بتوصيلها إلى البيت الذي لم يكن يبعد أكثر من مئة متر خلف الفندق في طريق الغابة.

ذهبت الجدة وتركت مرزوقاً ومصطفى ونيفرا تقوم بالترجمة بينهما ، لقد تحدثت كثيراً ولكنها لم تشعر بتعب لأنها تمارس اللغة التي تحب، وبدأت المواضيع المطروحة تتحو نحو الخصوصية ، ولا تغيب عن نيفرا نظرات الإعجاب من مرزوق والتي تلمحها بفطرة الأنثى حين جاورها رجل عبأته الحياة من تجاربها ، ودربته النساء على ما يعجبهن أو ما يرضي غرورهن، فكان تلميذاً مجتهداً لفترات طويلة ولمرات عديدة، وآن لها أن تحصد بذور غيرها ، فكانت تقول له حين تشعر بتعثر

الألفاظ في شفتيه، إنني لا أترجم كل شيء لمصطفى فيمكنك الحديث بما تشاء وأنا أعرف ما سأقول له، وكان حديثها يدخل شيئاً فشيئاً بالإثارة والتحريض، فسألها مرزوق عن البكارة، وعن أهميتها للفتاة التركية، وأخبرته لا تزال كما كانت مهمة، وأنه يصعب على الفتاة الزواج إن لم تكن عذراء، وأن المجتمع التركي مازال شرقياً في بعض الأمور، وأنها مقتنعة بذلك وحريصة على التقاليد القديمة.

لم يتسن لمرزوق الرد، فقد فوجئ الثلاثة بصوت امرأة من زاوية الفندق، فأشار مصطفى بيديه بطريقة ساخرة كمن ألقي القبض عليه، ووضعت القيود في يديه، فقد كانت المرأة هي ميما زوجة مصطفى، ففهم مرزوق ونيفرا أن مصطفى مضطر للذهاب إلى البيت، وأن مرزوقاً يمكنه أن يقوم بتوصيل نيفرا إلى منزلها الذي لم يكن يبعد كثيراً ولكنها الظلمة المخيفة في الليل، وقد أحس مرزوق بنشوة غريبة تجتاحه، وتعجب من مصطفى الذي يجد حسنة في زوجته، ألا تكفي هذه الحسنة، أنها أخذت مصطفى وتركته مع نيفرا،

إن هـذه الحـسنة تغطـي كـل عيـوب ميمـا في عيـون مـرزوق، إلا ضـياع القـصائد بـسبب مـساحة جديـدة للملابس، إنه ذنب لا يغتفر عنده.

وبعد ساعة أو تزيد انتصف الليل، فطلبت نيفرا من مـرزوق أن يوصـلها إن لم يكـن لديـه مـانع، فـأحس بسخف حديثها، كيف تقول له إن لم يكن لديه مانع، أي مـانع هـذا؟ إن كـان حـديثها مـن آداب الطلـب، فإنـه يكره الدبلوماسية، ولقد كان قديماً يفتش عما يسميه العرب في اللغة سقط المتاع، فقد عرف المعنى الآن، إن كلمة مانع يعتبرها من سقط الكلام، كيف يمكنها أن تتصور أنه يقبل بأي مانع، كان يشعر أنها يجب أن تأمره، إنها نيفرا النـافرة، وقد أخبرهـا أنـه كـان عليها أن تعرف بهذه الجلسة التي امتدت من الساعة السادسة مساء إلى منتصف الليل أنـه معها لمدة ربع يوم وكـأنـه على موعد مع هـذه الحسبة فسلامة الجفـالي طيـار إلا ربعاً ونيفرا جامعية إلا ربعاً وها هي تقطع ربعاً جميلاً من أحد أيامه في كوك شدره، وإنـه يفرحـه أن يسير معها إلى الصباح، فكيف لهذا الجمال الرائع أن تصدر منه

حماقة وكأنه جمال بلا ثقة من صاحبته به، حين قالت إن لم يكن لديك مانع.

كان لابتسامتها التي ترافقت قيامها وقع الشعرة على ظهر البعير، إن قواه لا تسعفه على الذهاب بها إلى حيث لا يراها، ماذا لو بقيت أكثر من ذلك، وماذا ستجد بانتظارها غير وسادة باردة، وماذا ينتظره غير دفتر صغير أحمر، يكتب فيه ملاحظاته قبل أن ينام، وهل يمكن أن ينام هذه الليلة دون أن يكتب شيئاً، إن مرزوقاً أسرع رجل في العالم يقع في الحب.

قامت نيفرا فحدق مرزوق فيها وهي واقفة ليرى السماء خلفها مظلمة إلا من نصف قمر، كأنه لص أغمض إحدى عينيه ولكنه لم يستطع أن يغمض العين الأخرى، فأبى إلا أن يراها حتى لو بعين واحدة:

تتباهى هذه الليلةُ

في نصفِ قمرْ

وببحرين من الليلِ

وبحرٍ من شجرْ

وبنورين

بياضُ الخدِّ في الوجهِ

ومن نصفِ قمرْ

فدعيني أتباهى

فأنا لا أتباهى عادةً

إلا إذا البر حضرْ

وأنا لا أتعامى عادةً

إلا إذا مرّ على القلب جمالٌ فانكسرْ

وأنا لا أكتب الأشعارَ

هل تدرين أني أبداً لا أكتب الشعرَ

إذا المعنى الذي فيكِ

عن الشعر انحسرْ

فدعيني أتباهى فيكِ

خليني على كيفي

أسوم الفخر في نفسي

وأنفضُّ شظايا

فوق صدر الليل نجماً وزهرْ

ودعيني أحتمي فيك إذا ما خانني عزمي

وما أمَّلته عندي

تولى واعتذر

ربما لا يكفي غيري من النصفِ

وإني أكتفي بالنصفِ إن جاء

ومن نصف قمرْ

لقد جاهد مرزوق في قيامه، حاول أن يطيل البقاء معها ولو لثوان، حتى الثواني أصبح لها أهمية كبرى وهي تعبر مجهدة من تعب النهار منتصف الليل، وبعد أن تجاوزا أسوار الفندق وبدأ الظلام المطبق إلا من نور نصف قمر، مدت يدها اليسرى لتداخل أصابعها بأصابع يده اليمنى وكأنها تنشد الدفء، فضغط على أصابعها حتى سمع تنهدها، ولأول مرة في حياته يكتشف مرزوق أن مسافة المئة متر يمكن أن تقطع بثوان مشياً، ولم

يكن يشعر بما حوله من أشجار كثيفة، إنه في غيبوبة دفء يدها وعند سور البيت توقفت نيفرا والتفتت إليه فرأى في عينها رغبة صارخة، أضاف عليها هدوء المكان وظلمته وحشية محببة، أضفى عليها نور نصف القمر شاعرية أخرى:

مدّتْ ذراعيها

فأطبقتِ الشفاهُ على الشفاه

وبدا تأوهها الجميل

وتمددتْ بالطول كانت ألفَ آه

فإذا بقاتلها القتيلْ

أحس مرزوق أنها تريد أكثر من ذلك فقال لها بصوت هامس:

والبكارة التي حدثتني عنها

فقالت بسخرية:

- إن من أكبر عيوب الرجل عند المرأة ذاكرته، ولو أتقن الرجل النسيان لانتهت أغلب الخلافات بينه وبين المرأة.

لقد كان مرزوق كلما أقدم على معصية أحس أن اللّه يراه،وسوف تكون نهايته فيها ، وهذا الشعور انتابه في فترة مبكرة من عمره، حين حفظ الدعاء: اللهم اجعل خير أعمالي في الدنيا خاتمتها ، وأخذ يردده في صلاته وفي كل عمل صالح يقوم به، وحين يجد نفسه أمام معصية يتذكر قول اللّه تعالى: "ومكروا ومكر اللّه واللّه خير الماكرين" وأمام هذه الوساوس في نفسه، وبعد انطفاء الرغبة الجامحة لتقبيل نيفرا ، بدأ يشعر بوحشة المكان، وأصوات الحشرات في الغابة المحيطة بدأ يعلو في سمعه، وأحس أنه بحاجة إلى من يوصله إلى الفندق، وكم تمنى قارطاً في تلك اللحظة وأنه لم يعد ذلك العاشق الذي كان قبل دخول الوسوسة في صدره، فاستأذنها بإشارة أن يراها غداً فأجابته:

سأراك غداً

وتقولُ غدا

ويمد القلب إليك يدا

وكأن كآبةَ أيامي

تمشي في الدرب بغير هدى

وكأن شفاهي إن هتفت

باسمك فالعينُ إليه صدى

سأراك إذنْ

وتقول أجلْ

يا ليت اليومَ يصيرُ غدا

قفل مرزوق عائداً إلى الفندق، وبدأ يشغل تفكيره بأشياء كثيرة حتى ينسى الخوف من الجن والكائنات الأخرى، فقد جعلته الكتب الكثيرة التي قرأها عن الجن وتحضير الأرواح على قناعة تامة بوجودها، وتساءل لماذا كانت هذه القبلة، وهل هي متأثرة بالأفلام الأجنبية، التي دائماً ما تجعل البطل يقبل البطلة بعد توصيلها إلى باب بيتها، أم أن دوافعها أخرى، وأنها أحست بحاجتها إلى تلك القبلة بعد ليلة متميزة كما أحس هو، لقد انتهت هذه الفكرة والمئة متر لازالت طويلة أمامه، فقرر أن يهرول أو يحاول أن يجري ويجرب سرعته القديمة التي كان يفوز بها في مسابقات

الجـري، وقبـل أن يبـدأ تـذكر مـا كـان يقـال لـه في الـصبا، مـن أن هنـاك سـكاناً آخـرين يـسكنون تحـت الأرض، وأن الإنـسان لا يجـب أن يجـري لـيلاً حتـى لا يؤذيهم فيـؤذوه، فتساءل وهـل أنـا في وضـع يـسمح لـي أن أؤذي أحداً، فقد مـات يعقـوب وكـان يكـبره بسنة وهـم صـغار، وقـد راج عـن سـبب وفاتـه بعـد المغيـب عنـد بـاب بيتهم، أنه كـان يجري وقبـل أن يـدخل البيـت خرجـت لـه جنية وضربته على كتفه فمات، حيث أن ملامسة الجـن قاتلة، فبدأ مرزوق يتحـسس كتفيـه متوخيـاً ضـربة علـى أحدهما، فمشى هـادئاً متململاً والفندق مازال بعيداً.

ـ يا إلهي كيف كـانت المسافة قصيرة في الـذهاب، وكـم هـي طويلـة في طريـق العـودة، أيعقـل أن تكـون المـسافة ثابتـة، إن علمـاء الفيزيـاء لم يفهمـوا العلـم كـاملاً، فليست الـسرعة وحـدها المتغيرة، ففـي مكـان مـا وزمـان مـا يمكـن أن تـصبح الـسرعة ثابتـة والمـسافة متغيرة.

أنهى مـرزوق هـذه الفكـرة علـى سـلم الفنـدق، وقبـل أن يدخل نظر إلى كرسي نيفرا الذي مازال يرتعش منها

فودعه، ونظر إلى كرسي الجدة فوجده ليس صغيراً كما ظنَّ سابقاً، ولكن أرجله الحديدية تعاني من التواء خفيف، ربما بسبب الضغط الذي مر عليه قبل ساعات، ونظر إلى زاوية الفندق حيث بيت مصطفى وقال :

ـ شكراً ميما.

ودخل الفندق دون أن يطلب محفظته من الأمانات ليتفحص الصورة كعادته كل ليلة قبل أن ينام، لقد جاءت نيفرا بارتعاش وبنفرة لها الحضور الذي لا توازيه صورة بلا حياة تنام في محفظته منذ غادر وطنه، وإن تعوَّد أن يراها في الأيام السابقة، فإنه في هذه الليلة لا يشعر برغبة في ذلك.

في الصباح، غافل مرزوق أبو حسن قارط للهروب وحده، حيث أنه يخجل من إحراجه، وهو يحاصره كطفل صغير يخشى عليه من الضياع فخرج دون المرور على مقهى الفندق حيث ينتظره عادة من الصباح الباكر، وقرر أن يتناول قهوة الصباح في أي مقهى

شعبي خارج الفندق، وحين عبر الشارع رأى بيت جدة نيفرا، وكم هو قريب هذا الصباح، وكان بعيداً ليلة البارحة، دخل المقهى الذي لا يبعد سوى مئة متر عن الفندق، إن قرية كوك شدره تتثاءب بطول خمسمئة متر وبعرض مماثل قبل الدخول في قرية الترمال ذات المياه المعدنية الحارة، فانتقى طاولة في آخر المقهى تطل على الغابة وتستقبل الشروق على حين غرة.

ها هو المقهى

صباحُ الخيرِ

فنجانٌ من القهوةِ أحلى ما يكونْ

بعد الرشفة الأولى من الفنجان والنفس الأول من السيجارة الأولى أحس بجمال كل شيء حوله، فكأن كل من حوله آثر أن يفشي له سراً هذا الصباح، هذه الأشجار بلا نهاية، وسائرة حيث يسير البصر.

ـ أتحتمل الأرض هذا الأخضر؟

ودارت برأسه فكرة الألوان وتمايزها ومعانيها، وأدرك أن بعض الأمثلة الشعبية لا تصلح في كل الأمور

كالمثـل القائـل "إذا زاد الـشيء عـن حـده، انقلـب إلى ضـده"، فهـذه الأشـجار زيـادة عـن حاجـة العـين لرؤيتهـا، وزيادة عن حاجة الأرض لها، ورغـم ذلـك فإنهـا موغلـة في الجمـال، واكتـشف وهـو يحـدق في الغابـة أن أجمـل الألوان الـتي خلقهـا اللّـه هـو اللـون الأخـضر، لهـذا أعطـاه لـلأرض، ويـأتي اللـون الأزرق ثانيـاً حيـث أعطـاه اللّـه للسماء والبحر، أما بقية الألوان فليس لها امتياز خـاص، ويكمـن استبدال بعضها ببعض، إلا الأخضر والأزرق، فلا يمكـن أن نتصور غابة حمـراء أو أشـجاراً سـوداء أو سمـاء صفراء أو حمـراء، فكتـب ذلـك في دفتره الـصغير الأحمـر، ولأن اللّـه جعـل في الإنـسان غريـزة الملـل مـن المعهود، وحتى يبقى اللون الأخضر محبباً، جعل الفصول المتعاقبة تغير من لون الطبيعة، كما جعل الغيم كذلك يحجب اللون الأزرق لفترات حتـى لا نمل منـه حـين يـدخل في العاديـة، ويفقـد أهميتـه كمـا فقـدتها الـشمس لأنهـا تطلـع كـل يـوم، ولم يفقـدها البـدر لأنـه قليـل الظهـور، فـالغزل والوصـف والتـشبيه عنـد الـشعراء والكتـاب مـن نـصيب القمـر ولـيس الـشمس، فقـط لأنهـا لم تـتقن فـن

الغياب، وأثناء كتابة هذه الأفكار في الدفتر الصغير، رأى مرزوق أبا حسن قارطاً يمشي ممسكاً بيديه الاثنتين مسبحته الصغيرة. محدودب الظهر، يحدق في الأماكن المحيطة، وكأنه يفتش عن قاتل أبيه، أدرك مرزوق أنه يبحث عنه، وأدرك أنه لا بد أن يدركه عاجلاً أم آجلاً، وما على مرزوق إلا أن يغتنم بضع دقائق بعيداً عنه.

تخفّى مرزوق بين الجالسين من خلال حركة خفيفة وساعده على ذلك أنه يجلس في آخر المقهى، وأثناء هذه المطاردة الصامتة تقدم شاب وسيم من مرزوق، ولكل من يراه أول مرة يثب أكثر من سؤال، لماذا هذا الكحل وأحمر الشفاه، والخدود الحمراء، والملابس الغريبة، وأسئلة أخرى كثيرة.

- عربي أنت؟

- نعم

- صباح الخير، وأنا آسف لاقتحام جو الكتابة عندك، ولكنني كنت أراقبك منذ دخولك، وتركتك

تكتب بلا إزعاج حتى رأيتك قد انتهيت، وقد كنت تكتب بالطريقة العربية فعرفت أنك عربي.

تذكر مرزوق حديث مصطفى عن زوجته ميما وقال في نفسه لو تزوج مصطفى هذه العقلية لأصبح أكثر راحة لكتابة القصائد، أين هذا السلوك الحضاري من سلوك زوجة تضيع أشعار زوجها من أجل مساحة إضافية لملابس جديدة.

- اسمي "شمس" وهو اسم الشهرة وكما أرغب أن يناديني به الناس.

- اسمي مرزوق وليس لي اسم شهرة، فهو الاسم الكادح والمشهور عندي.

وبعد لحظة من الصمت ترك شمس مرزوقاً يحدق في وجهه وهو يعرف ذلك، حيث أن التساؤلات التي سيطرحها مرزوق هي من دواعي سروره، وبدأ شمس بحركات استعراضية تظهر جميع زوايا الوجه الذي طغى الكحل العربي على نصفه العلوي، أما النصف السفلي فكان من نصيب أحمر الشفاه والمساحيق

الأخرى، لقد فاقت كمية الكحل الممثلات الهنديات، فيخاله الرائي من بعد كأنه يرتدي نظارة شمسية، هذا هو شمس أول ما تراه، الحذاء رجالي، والجوارب نسائية هذا هو من أعلى ومن أسفل مما دفع مرزوقاً لمحاولة معرفة ما في الداخل.

وبعد أن أعطى شمس الوقت الكافي لمرزوق ليتفحصه، ابتسم ابتسامة عريضة وكأنها مقصودة مبدياً خزينته، حيث تقول النساء عادة عن الذهب إنه زينة وخزينة، ولكن شمساً لديه من الذهب بأسنانه وأصابعه ما يغطي ميزانية أسرة غنية في زمن التقشف، وارتفاع العملات الأجنبية، مما يؤدي إلى حتمية ارتفاع سعر أسنان وأصابع شمس.

لقد حان وقت الحديث مع هذا الشاب المنزوي في هذا الركن، يكتب ويتأمل فيما حوله، فبادر شمس:

- أراك تكتب، هل أنت كاتب أغانٍ

- وهل يحتاج كاتب الأغنية إلى طبيعة خاصة حتى يكتب؟

ـ تكتب ماذا إذن؟

ـ أشياء لا تهم الكثير.

ـ عن الحب؟

ـ هو الشيء الوحيد الذي يهم كل الناس، وهي الكتابة الوحيدة التي تهذب الكاتب وترقق كلماته، وتجعله أكثر قدرة على العطاء.

ـ لديك رأيك في الحب.

ـ كل إنسان له رأي في الحب، أليس لك رأي أنت؟

ـ نعم ولكنني أحب أن أسمع رأي كاتب مثلك إذا سمحت.

ـ الحب هو احتوائية الإنسان لإنسان آخر، بأجمل وأرق وأعذب احتوائية، وهو أعز إذلال بل هو الإذلال الوحيد المحبب، وهو أفسح قيد يقيد به المحب محبوبه، إنه امتزاج كالكهرباء سالب بموجب، وهو مزيج من علاقة عاطفية وجنسية، وإذا اكتفى بالعاطفية فقط أصبح حباً مريضاً، ونزل إلى مرتبة الصداقة والزمالة، والأنثى..

تدخل شمس مقاطعاً:

ـ وما دخل الأنثى بالموضوع، ألا تكون هناك حتمية للحب دون وجود الأنثى؟

ـ إني أراها نصف كل شيء ولو لم يكن للكل نصف، لقلت إنها الكل ذاته.

ــ هذه فلسفة تقال في أجهزة الإعلام، والرجل الشرقي يمارس كل أنواع الاستعباد للمرأة، وحين يتحدث في أجهزة الإعلام، نراه يردد المقولات التي تؤيد عمل المرأة وأنها نصف المجتمع وشعارات كثيرة كهذه.

ـ أعرف هذه الإشكالية تماماً.

ـ إنها ليست إشكالية، إنها الأقنعة التي لا نعرف أن نمشي بدونها، حتى الرجل الغربي يتعامل مع المرأة كسلعة ناجحة، فهو يستخدمها في الملاهي الليلية المشبوهة، والدعاية والإعلان، والمرأة الجميلة فقط هي التي تجد في الغرب مصادر دخل كبيرة، أما المتوسطة في الجمال و القبيحة فإنها كادحة، وتنام كل ليلة على مساحيق الشعارات كالمساواة وحقوق المرأة.

ـ يبدو أنك تحمل الكثير على المجتمعات وخاصة الرجل.

ـ أنا وصديقي قمر لدينا قناعة أخرى، لا نراها تتمشى مع مجتمع بالنسبة لنا شبه عارٍ من الأفكار المتطورة، ولا يتقن السير إلا بالأقنعة.

- زدني باللّه عليك، ربما كانت ذات كشفٍ لستر ومبعث نور لليل، فقليلون هم الذين لا يخافون الأفكار الجديدة، ومن لا يحتمون بمرجعية معينة لاستعطاف القلوب من أجل تحقيرها ورفضها.

تكلم شمس حول مشاعره المعادية للمرأة، ونظرته لها وأسهب حتى بدت علامات الدهشة تجتاح مرزوقاً، وأن هذا الواقع مفروض عليه وقد ارتضاه، وبقدر ما يشعر الجلد بلسعة النار يشعر هو بخيبة الأمل، من الرفض الذي يرتسم على الوجوه، ولو كان قلبه من حجر لتكسر من معاناته ولكن قلبه قلب امرأة ذلك القلب الذي يتقن الصبر في المجتمع الشرقي، فلم يتمالك مرزوق نفسه أمام اجتياح الدهشة له فقاطعه:

ـ لو مكنتك قوتك أن تسرج الغيم أو تلجم الموج لما مكنتك من زلزلة قناعاتي قيد أنملة.

ـ عناد ومكابرة لا أكثر، وطبيعة الرجل الشرقي تستعمر إرادتك وتصادر خياراتك، ولا تملك التمرد الذي يتصنعه بعض الكتاب إذا كنت منهم.

ـ إنك تضعني بين خيارين، إما أن يكون وجودي حقيقة أو أن يكون وهماً، وبما أنني أراك أمامي رجلاً يلبس امرأة.

ـ بل امرأة تلبس رجلاً.

ـ لا فرق مادامت كلتا الحالتين ستوصلانني إلى النتيجة الحتمية، وهي وجودي الذي رحت تشككني فيه، وقناعاتي بكل مستوياتها، التي تعلمتها طفلاً وتربيت عليها، أو التي اكتسبتها من الحياة والمعرفة.

ـ أنا لا أطمع فيما تخشاه، لأن خسارتي ستكون أعمق من خسارتك، وستكون كالموجة التي تعيدني إلى الشط الموحش، وأنا أصارع أمواج اليم المعتكر، على أمل أن أتخطى المستنقعات والوحل الذي يحول بيني

وبين الراحة النفسية لنفس تصارع من أجل توصيل قناعاتها الكاملة إلى بعض من أفراد المجتمع.

ـ وهل أنت وصديقك هنا من أجل توصيل هذه الأفكار.

ـ إننا هنا لنفس السبب الذي أنت جئت من أجله.

ـ وما أدراك بأسبابي؟

ـ دعنا من الأسباب ولا تغير الموضوع.

ـ اسمح لي يا شمس ليس بيننا موضوع مشترك، إنك تحاول أن تجعلها محاضرة من طرف واحد، وأنا أكره ذلك، كالكثير من المحاضرات التي نسمعها ولا يقدم فرسانها إلا ترجمة للمصطلحات الغربية، وهي بعيدة عن واقعنا المعاش.

أحس شمس بأن حالة الاستنكار البادية على ملامح مرزوق، لا تسعفه على استكمال حديثه فودع مرزوقاً قائلاً:

ـ لقد آن لي أن أغادر، ولا يؤسفني أنك لم تغير مفاهيمك بقدر ما أزعجني أنك ربما تكون ممن

يتكلمون بالأفكار المتطورة والمستوردة، وأريد أن أسأل، ألم تنزل أفكارنا للأسواق بعد؟ أما حان أن يكون هناك وكلاء معتمدون لاستيراد مثل هذه الأفكار، كما للفكر الأوروبي وللشعر الحديث وكلاء معتمدون لدى غرفة التجارة عفواً أقصد غرفة الثقافة.

كان هذا آخر ما زفره شمس وهو يستدير مستأذناً بلطافة للمغادرة، فجلس مرزوق في وجوم، يسترجع بذاكرته كل من عرفهم من الرجال والنساء فوجد أن شمساً صنف آخر، ومختلف عن هؤلاء وهؤلاء، وقد استصغر عليه أنثى مفعمة، واستكثر عليه أنثى متحررة، حيث أنها تفقد الكثير من أنوثتها، واستنكر عليه الرجولة كما استنكر العرب كامب ديفيد في البدء، بل وبحجم ما يحمل الاستنكار العربي من شمولية، ولم يزل يعدد حالات الاستنكار، حتى سمع صوت رجل أجش

- وين رحت يا هرّاب؟

ـ أبو حسن تفضل، ليتك كنت هنا قبل قليل، كان معي...

ـ رجل عربي.

ـ أتحفظ على كلمة رجل، ولكنه من العرب.

ـ إحذر النصابين، أنا أعرفهم من أول نظرة، كلما شاهدوا عربياً أقدموا عليه بالحيل والأكاذيب، فمرة يقول سرقوا فلوسي، ومرة يقول أمي مريضة، وحيل كثيرة.

ـ اجلس يا بو حسن أنت تصر على معاملتي كطفل صغير.

ـ كيف كان شكله، وريني إياه.

ـ اجلس يا أبا حسن فأنا أعرف.

وإنك كالليل الذي هو مدركي

وإن خلتُ أن المنتقى عنه واسعُ

ـ واللّه هذا كلام حلو.

ـ هذا كلام النابغة الذبياني.

ـ من وين، من عندكم؟

ـ ليس بعيداً يمكن أن تقول كذلك.

ـ وكيف هربت مني، هذه أول مرة تصير معي.

ـ يا بو حسن أنا جئت هنا للاستجمام، وأحب أحياناً أن أكون لوحدي، أمشي لوحدي أفكر لوحدي.

ـ شو يا ابني أنا معك لخدمتك وليس لإزعاجك، وأول ما تريد أن تكون لحالك أخبرني فأنا أفهم بالأصول.

ـ بارك اللّه فيك يا بو حسن.

ـ شوف هذا البيت الأبيض، إنه بيت أخي يوسف، اشتراه لأم الأزميرية، وأنا الذي وجدته لأخي، وأوصلته لأرخص سعر، وأكل عليّ عمولتي، ولو عملت هذا الشيء مع غريب، لأعطاني ثمن عرقي وتعبي، ولو قرر الآن بيعه، سوف يربح به أضعاف ثمنه.

ـ وهل لأخيك أولاد؟

ـ لديه ثلاثة أولاد وكل واحد اشترى له سيارة ولديه بنت واحدة تدرس في الجامعة.

ـ وما هـي أسماؤهم؟

ـ محمد الـكبير وظافر ورضا وابنته الصغيرة نيفرا.

بـدأت الأمـور عنـد مـرزوق تأخـذ أشـكالاً أخـرى، وأحس بيد القدر تعمل من حوله بشكل علني، وأن بـو حـسن هـذا لـن تكـون علاقتـه بـه عـابرة، إنـه المرافـق والمترجم، والمسلي أحيانـاً وأهـم مـن ذلـك كلـه، إنـه عـم نيفـرا النـافرة، ودارت في رأس مـرزوق أسـئلة كـثيرة، فربمـا وجـود بـو حـسن معـه يخيـف نيفـرا منـه، ولمـاذا لا يطلب منه العودة إلى اسطنبول ويـراه في العـودة، فالقريـة صغيرة ولن تحتاج منه لـدليل أو مترجـم، وكـذلك لأنـه لا يستطيع الهروب منه، لأنه كالليل كما قال النابغة.

أحس بو حسن قارط بتفكير مرزوق الطويل، وربمـا استنتج كل ما دار برأسه، وهو لا يريد أن يخسره فبادر قارط قاطعاً لحظات تفكير مرزوق.

ـ نيفـرا ابنـة أخـي هـي الـتي سـهرت معهـا في حديقـة الفندق أمس وقد كانت حركة شهامة منك أن أوصلتها إلى البيت، فالوقت كان متأخراً.

ـ وأين كنت أنت؟

ـ كنت أراقبك من شباك غرفتي، فأنت تعرف أن أولاد الحرام كثير وأنا أخاف عليك منهم، وأنت معي أمانة إلى أن تعود إلى بلدك.

ـ تخاف عليَّ من ماذا يا حاج أنا لست طفلاً.

ـ لا تغتر بشاربك هذا، فالنصابون لديهم شوارب أكبر.

ـ ليست القضية قضية شوارب فالجزارون هم أصحاب أكبر شنبات، وكأن هناك علاقة بين الساطور والسكاكين والشنب.

ـ أنت طيب وعلى نيتك، والنصابون تدربوا على الخديعة ودرسوها جيداً وربما تكون أنت بالنسبة لهم رجلاً أميّاً.

ـ قبل سنوات حين كنت في المجر، سرقني رجل بطريقة ذكية، وهو يصرف لي العملة.

ـ هذا ما أخشاه هنا.

ـ ولكنني احترمت الرجل، وتمنيت أن ألتقيه كي أشكره.

ـ تشكر حرامياً!

ــ أجل فقد تعلمت منه طرق الاحتيال، وأعجبت بذكائه، وطالما كان أذكى مني فيجب أن أحترمه.

ـ طرق الاحتيال كثيرة، وأنت تعرف القليل منها، وما تسميه أنت ذكاء، أسميه أنا استغلالاً وحقارة.

ـ يا بو حسن العقل المبدع يجب أن تحترمه.

ــ كيف كان شكله ابن الحرام وشو كانت جنسيته، أكيد عربي.

ـ يا بو حسن أراك تحمل حقداً على العربي وهذا لا يجوز من رجل عربي، لقد كانت جنسيته بولندية، هل ارتحت الآن؟

أمسك مرزوق بدفتره واستدار بوجهه للناحية الأخرى، حتى يشعر أنه لوحده، ويمكنه أن يكتب، وانشغل قارط بالمسبحة، فأحسَّ مرزوق بأنه كان من الواجب أن يتعاطف مع من يحرص عليه هذا الحرص

كما أنه لا يمكن أن يغفل حقيقة أنه عم نيفرا النافرة، ولكن ما هي الطريقة التي يجب أن يتعامل فيها مرزوق مع رجل كظله، وكيف يستأذن ظله لساعة دون أن يجده أمامه كالغفلة؟ ترى هل يحمل جنياً في مسبحته؟

أسئلة مرت على مرزوق قبل أن يسأل قارطاً.

- هل تتكلم نيفرا العربية؟

- ألم تتحدث معها ليلة أمس، إنها تتكلم أحسن مني ومنك.

- ولكنها تكلمت معي بالانجليزية.

- هذا تدبير بنت الحرام أزميرية أمها، كانت تكره العرب وتجبر أولادها على الحديث بالتركية حتى لا يحتقرهم الأتراك.

- ولكن أنت متأكد أنها تتكلم العربية.

- شوف هذا، أكيد، أحسن مني ومنك.

انفرجت مساحات من الأسارير والتساؤلات عند مرزوق، إن نيفرا لم تتكلم معه العربية، وكان بحاجة لتلك اللغة التي يشعر أنه يكون بها نداً لكل جمال،

فهي سلاحه الذي يثق به، إذا وثقت المرأة بسلاح جمالها أو أنوثتها، إنها اللغة التي تدرب على ألاعيبها وأتقن مفاتيحها، إن نيفرا لم تتكلم بالعربية حين قال لها جمالك أشعرني بفقر المفردات الإنجليزية عندي، وحاصرني بضعفي، ربما لأن السيد رحمي كان موجوداً، وقدح سؤال كبير عند مرزوق، فقد قالت نيفرا إن السيد رحمي قريبها فبادر يسأل قارطاً:

ـ وما علاقة السيد رحمي بنيفرا.

ـ إنه خالها، فهو أخو الأزميرية زوجة أخي يوسف، ولكن رحمي أخلاقه حلوة وطيب وليس كأخته وهو مدير الفندق ويعمل كل ما يريده.

ـ أليس هو صاحب الفندق؟

ــ لا، إنه فندق أخي وشريكه السعودي، الذي أخبرتك عنه.

ـ وهل يأتي إلى هنا.

ـ نادراً ما يأتي، فقد أجبرته زوجته أن يعمل توكيلاً لشقيقها رحمي.

ـ وشريكه السعودي.

ـ تخيل، لقد مات السعودي بعد سنة من شراء الفندق، وأرسل أخي عدة رسائل لأهله، وبعد خمس عشرة سنة، جاء شاب عمره عشرون سنة، ليقول إنه خالد ابن الرجل السعودي، وأعطاه أخي نصيبه من الأرباح عن الفترة السابقة، فتوطدت العلاقة معه، وكل سنة يأتي عدة أيام، وهو شاب مؤدب وطيب ووجهه مثل وجوه أهل بخارى، الذين يسمونهم مخلفات الحجاج.

ـ وهل هم بقايا أكل أو مواد بناء أم بشر، حتى تسميهم مخلفات الحجاج.

ـ هكذا كنت أسمعهم يقولون.

ـ إذن أحضرتني لفندق أخيك.

ـ واللّه إنه أحسن فندق في القرية، ويمكن أن تتأكد من ذلك، وخليني أكشف لك سراً، هناك فنادق ومطاعم كثيرة، يطلبون منا أن نحضر السياح لهم، ونأخذ منهم عمولة، وكل مطعم أو محل يطلب مني ذلك لا أذهب إليه، فأنا لا أخون من أعمل معه

وفندق أخي هذا ليس لي فيه امتياز إلا أنه يعطيني غرفة مجانية مع الشغالين، وأنت تعرف النظرة على الشغالين والعمال.

ـ لا أعرف ما تقصد، فالعامل والفلاح والمدير ومنظف الشوارع كلهم يؤدون أعمالاً شريفة ومكملة لبعضها.

ـ هذا الكلام جميل يا ابني ولكنه عندنا، وليس في العالم الثالث، كما يقولون، ففي الدول الغربية المتحضرة عامل النظافة يتمتع بكامل حقوقه، ويمكنه المطالبة برفع أجره، و أشياء أخرى، أما في العالم الثالث فإن عامل النظافة، إما أن يكون معتوهاً أو إنساناً غير طبيعي، تخيل نظافة البلد تعطى لهؤلاء لأنه لا يوجد سواهم من يعمل بلا أدنى ضمانات للحياة و السلامة.

ـ ولكنني ألمح أحياناً شباباً هنا.

ـ هؤلاء من أغلقت أمامهم كل الأبواب وليس في شخصيتهم ميول للانحراف والإجرام. إنهم من اليائسين،

ومهنة عامل نظافة الشوارع هي المهنة الوحيدة التي يعمل بها من يريد دون أدنى شروط، أما عند الغرب فإن لها شروطاً معينة، وهو عندنا يعتقد أنه كلما كانت ملابسه مقطعة وقذرة كان أكثر ملاءمة للمهنة.

- ملاحظاتك عجيبة.

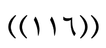
- إنس النظافة، لدي مكان جميل للغداء.

- تفكر كثيراً بالأكل.

- على بعد خمس دقائق بالسيارة، هناك على الجبل، مقابل البحر، مطعم اسمه حسن بابا، يمكن أن تشتري اللحم وتقوم بشوائه بنفسك قرب طاولتك، إنه مكان شاعري وجميل يناسبك.

- ويناسبك أنت أيضاً.

- نعم يناسب الجوع القديم.



الفصل الثالث

عاد مرزوق وقارط عند الظهر إلى الفندق ليجدا سلامة الجفالي بانتظارهما في بهو الفندق ، لقد كانت مفاجأة سارة تمناها مرزوق وكرهها قارط الذي استقبل سلامة بالصراخ.

ـ ماذا قلت يا أعرج ذلك اليوم في حديقة الحيوانات.

ـ يا زلمة أنت لسه عايش وعندك ذاكرة أيضاً ، إذن أنت كائن حي.

أنهى مرزوق الحوار قبل أن يحتدم بينهما حين سحب سلامة من ذراعه إلى المصعد ودخل به غرفته وقد أغلق كل المجالات للحوار بين سلامة وقارط. استأذن مرزوق سلامة ودخل الحمام وجلس سلامة على الشرفة يقلب عينيه في الطبيعة من حوله وفي الأوراق المبعثرة على

الطاولـة ، وحـين خـرج مـرزوق اسـتقبله سـلامة بـضحـكـة عالية.

ـ يبدو أنك وقعت في الحب يا شاطر.

ـ أسـكت يـا أخـي فتـاة في منتهـى الجمـال والنعومـة والأنوثة.

ـ الجمال هذا أمر نسبي أما النعومة والأنوثة ، فإنه لا يوجد شيء في الدنيا اسمه أنوثة.

ـ كيف ذلك ، هل شاهدتها.

ـ يا أخي الأنوثة هذه مصطلح ابتدعه الرجل ، ولـيس كـل رجـل بـل هنـاك مـن يـرى أسـلوباً أو شـكلاً معينـاً يسميه أنوثة ، وقد لا يراها غيره فهي شيء غير محسوس بدليل أن المرأة لا ترى الأنوثة في المرأة الأخرى ، إنها شيء معنـوي في مـشاعر الرجـل فقـط ، أو الأصـح إنهـا وهـم يخلقه الرجل في نفسه تجاه امرأة معينة.

ـ وماذا تسمي رقة المرأة ، أو دلعها أو ذوبانها.

ـ أسميه رقة ودلعاً، وهما سلوك تتقنه المرأة أكثر من الرجل ويتقنه الطفل أيضاً، فالطفل يعرف الدلع أيضاً.

ـ هذا كلام عجيب.

ـ ليس عجيباً يا أخي، إن ما تسميه أنوثة هل يمكن للمرأة نفسها أن تعرفه أو امرأة أخرى أو رجل كبير في السن وقد نسي آخر مرة اشتهى بها امرأة، كصاحبك أبي حسن الذي لم يعد يعرف أن هناك علاقة جنسية يمكن أن تكون بين الرجل والمرأة، أتمنى عليك أن لا تعطي اسماً للوهم وأن لا تساير إلا ما تقتنع به لا ما درجت عليه، المهم ماذا رأيت في هذه القرية.

ـ إنها صغيرة وجميلة وسوف تشاهد بساعات كل ما شاهدته أنا بأيام، وأعتقد أن أهم شيء يجب أن تراه هو نيفرا النافرة، وشمس، وحمامات ترمال.

كان سلامة الجفالي قد قرر المجيء إلى كوك شدره قبل يومين ولكنه التقى مع عثمان البودر وهو شاب يمني تعرف عليه سلامة في لاهور، وربطت بينهما

صداقة التنازلات، وهي الصداقة التي تنشأ في الغربة، فحين يلتقي الأغراب يتصادقون بسرعة مقدمين تنازلات كثيرة حول الصداقة التي يؤمنون بها في بلادهم عادة، فلا تهم عاداته أو طوله أو شكله، إن الإنسان يتنازل عن قيم ومبادئ كثيرة في الصداقة، كان يؤمن بها قبل أن تفرض عليه الغربة قوانينها ومبادئها.

ويتذكر سلامة المواقف التي مرت معه مع عثمان البودر، وكيف كان صعب المراس، وإن ألفاظ الشتيمة لا تفارق فمه حتى وهو يثني عليك، ولا يعرف الاعتدال في حياته فإذا كان في اليمين فهو في أقصاه وإذا كان في اليسار فهو في اليسار حتى تخاله أعسر، وانقلابه إلى أحد النقيضين يأتي بساعات أو بأدنى الأسباب وأحياناً إشارة تكفي، سهر مرة مع سلامة الجفالي ودارت الكؤوس مع النساء والحشيش عبأ الغرفة بالدخان الأزرق، وفي الصباح فاجأ سلامة:

ـ قوم يا سلامة نجاهد في أفغانستان إنها قريبة.

ـ يا فتاح يا عليم، يا زلمة صلي على النبي الدنيا صباح أنت لسه سكران.

ـ أنا مصلي على النبي قبل ما أشوف وجهك الأكلح هذا، أقولك قوم، الناس كلها تموت بكره وخلينا نموت شهداء أحسن.

إن سلامة الجفالي يحمل مثل هذه التناقضات ولكنها ليست بالدرجة التي يحملها عثمان البودر، فبعد أن غادر إلى أفغانستان عاد بعد شهر في ثاني أيام رمضان، وكان الإجهاد عليه واضحاً، زار في اليوم التالي سلامة ظهراً واستقبله خير استقبال في غرفته المستأجرة وحدثه كثيراً عن الجهاد وفضل المجاهدين، وكان سلامة يصغي بانتباه لما يسمعه من قصص تعيد للمسلم كرامته، وبعد ذلك طلب سلامة من عثمان أن يستلقي فالصوم في أيام الشتاء أصعب منه في الصيف وليس كما يظن الناس، فالصائم في البرد يشعر بالجوع والبرد أما صائم الصيف فإنه يشعر بالعطش فقط، فقال عثمان:

ـ هل تعرف يا سلامة أنا غير مقتنع بأن السيجارة تفطر الصائم.

ضحك سلامة وقال:

ـ لقد عاد عثمان إلى ما كان.

ـ صحيح يا أخي إنها ليست أكلاً أو شرباً إنها دخان، وإذا كان الدخان يمشي بالدم فالجو الملوث مليء بالدخان الذي يجري في الدم، ومعنى ذلك أن سكان العواصم كلهم فاطرون لأن العواصم الكبيرة كلها ديزل، وفي الدول المزدحمة، أنا بصراحة غير مقتنع بأنها تفطر الصائم.

ظل سلامة صامتاً. ففتح عثمان علبة السجائر واستل سيجارة وأشعلها، فضحك سلامة ومدّ يده تحت السرير واستل صحناً به علبة من سمك التونة وقطعة خبز كان قد بدأ بأكلها ثم توقف وخبأها تحت السرير حين سمع طرق الباب، إن علب السردين من المأكولات الفاخرة في نهار رمضان للعزاب في الدول الإسلامية.

إن الـذي ربـط سـلامة بعثمـان البـودر لـيس صـداقة التنـازلات فقـط، فعثمـان البـودر يمتلـك كـل الـصفات الـسيئة وأقلها بـذاءة اللـسان وأجمـل مـا يمكـن أن يقـال عنه إنه طيب القلب ويكبر الصداقة، وقد دعا عثمان سـلامة لزيـارة الـيمن ووجـدها سـلامة فرصـة ليلتقـي بالقيـادة الفلـسطينية المـسؤولة عـن الجـيش الفلـسطيني المنسحبة من لبنان بعد اجتياح ١٩٨٢، حتى يعرف مصيره بعـد الحادثـة، فمـا كـان يتلقـاه مـن مـصاريف لا تغطـي العـلاج الطبيعـي والمعيـشة، فأقـام في شـقة عثمـان والـتي أشبه ما تكون بأرشيف إحدى الصحف، فهي عبارة عن مكتبة صحفية بها بعض الأثـاث المنزلـي الـذي لا يتجـاوز سـريراً، وطاولـة وكرسـياً، و مـذياعاً قـديماً، ذلـك المـصنوع مـن الخـشب وقطعـة قمـاش تحفـظ الـسماعة بأزراره البيضاء، الأجهزة المألوفة بالـستينات ومـا قبلـها، وكان لوالد مرزوق جهاز مثله، وفي أحد أيام صيف سنة ١٩٦٧ كسره حين كان يستمع لانتصارات العـرب الـتي كان يذيعها المذيع أحمد سعيد من إذاعة صوت العـرب، بعد أن ظهرت الحقائق.

في هذه الشقة التي تتناثر على أرضيتها الصحف والمجلات التي يراسلها عثمان ويحتفظ بمساهماته بها، كان يكتب في كل مجال السياسة، الثقافة، علم الاجتماع والفلسفة، ولم يكن يتقن علماً واحداً إتقاناً جيداً ولكنه يشعر وهو حبيس هذه الشقة، إنه يتوجب عليه أن يبدي رأيه في القضايا، وأنه مطالب بذلك، وكانت أخته هدى هي الوحيدة من أهله التي تزوره، أو التي سمح لها بزيارته بين فترة وأخرى، ويعرف منها أخبار الأهل، وقد أحس سلامة بإعجاب يصل إلى مراحل الحب العنيف تجاهها، ولكن هدى التي حباها اللّه جمالاً لا يوصف، وسحراً أخاذاً لا يمكن أن يرضي غرورها رجل أعرج لا تعرف معالم مستقبله، ولكن الحسنة الوحيدة التي كانت تراها فيه، هي أنه صديق حسن الذي تحبه أكثر من والديها، وقد فاتحت سلامة وهما في جلسة للقات أن أصولها يهودية وأنها تتمنى أن تظهر هذه الحقيقة أو أن يعترف والدها بذلك، والذي يجمع بينها وبين عثمان أنهما مقتنعان بأنهما متميزان لأنهما يهوديان.

وقد بدأت رحلة الشك هذه منذ سنوات حين سألتها إحدى عجائز اليمن بعد أن بهرها جمالها عن أهلها فأجابتها أنها من الجولان فقالت لها أنتم أهل صعدة، غيرتم من دينكم واللّه قد أعطاكم جمال الدنيا، وليس لكم في الآخرة شيء.

إن سلامة أحب هدى ولكنها تعرف كيف تحدد العلاقات التي تريدها، فهو لم يكن ليرتقي لأكثر من منزلة الصديق عندها، وإصرارها على أنها يهودية وأن أباها أسلم قبل ثلاثين سنة وأن إسلام والدها لا يمكن أن يغير من دمها وأنها لابد أن تكون كما كانت جذورها، جعل سلامة الجفالي يوقف سيل كلمات الإطراء التي كان يلقيها عليها كلما دخلت الشقة فقد كانت تراه من عصر آخر، حين فكر فيها كزوجة:

وهدى تقولُ بأنني رجلٌ من العصرِ القديمِ

فلن أكونْ

يوماً وحيد جمالها

وتظنُّ بي كل الظنونْ

قد أرضعتني مرةً عطشَ السنين

فكنتُ آخرَ من يرد رضابها عني

وأولُّ من يخونْ

هدى العربية اليهودية جعلت العلاقة بين سلامة وعثمان ذات خصوصية معينة، فزادت أواصر الصداقة بينهما بعد أن كانت صداقة تنازلات، وأصبحا حريصين على المراسلة في البعد والالتقاء معاً إذا كانا في بلد واحد.

حاول سلامة الجفالي أن يبعد صورة هدى من عقله حين تكلم مرزوق عن نيفرا بإعجاب، فهي تسيطر على تفكيره بكل تناقضاتها، حينما تجيء فهي العربية التي يرى أهله وعشيرته بها وهي اليهودية التي تمثل أعداءه الذين اغتصبوا أرضه وقتلوا أخاه، وهي الجميلة الساحرة والجمال ليست له جنسية محددة، فهو أينما يتواجد يكون جنسية بحد ذاته، فطلب من مرزوق أن يرافقه إلى بهو الفندق، حيث يجلس عثمان البودر حتى يتعرف مرزوق عليه، وغضب مرزوق لأنه ترك صديقه

دون أن يدعوه معه إلى الغرفة، وأثناء نزولهما من غرفة مرزوق قال سلامة:

ـ انتبه إياك أن تقول له البودر لأن هذا ليس اسمه إنه لقب.

ـ ولماذا البودر؟

ـ عثمان كان يتعاطى القات في اليمن ثم تحول إلى الحشيش في لاهور، وفجأة تحول إلى الكوكايين، أي البودرة، وأسماه بذلك الأصدقاء لأنه الوحيد الذي يتعاطى ذلك النوع من المخدرات.

ـ والآن هل مازال كذلك.

ـ لقد تعالج والحمد للّه وشفي من الإدمان بفضل القات، فهو العلاج الذي أنساه البودرة.

ـ ما شاء اللّه على أصحابك يا سلامة، واحد بودرة وآخر حزب العمال الكردستاني، والأفغان، وجزر فوكلاند، ومع ذلك لا يعجبك الحاج أبو حسن.

اجتمع مرزوق وسلامة وعثمان البودر في مقهى الفندق، وكان عثمان كما قال عنه سلامة بذيء

الملافظ، يشتم قبل كل جملة وبعدها ،وعرف مرزوق سبب تواجد سلامة في اسطنبول من قبل، وها هو عثمان يخبره بأنه جاء لاسطنبول من أجل تحقيق رغبة أخته هدى التي تحاول منذ فترة طويلة إثبات حقيقة أصلها ، لقد أسلم والدها قبل ثلاثين سنة واختفت كل الأدلة و البراهين على صحة كلام تلك المرأة العجوز، حين قالت لها أنتم أهل صعدة غيرتم دينكم واللّه قد أعطاكم جمال الدنيا وليس لكم في الآخرة شيء.

تعجب مرزوق من سخافة الحقيقة التي يبحث عنها عثمان لأخته، فبعد أن أنعم اللّه عليهم بالإسلام ما جدوى البحث عن الجذور، فلو حرص كل الناس على تلك الجذور لتكشفت حقائق مذهلة بالنسبة للعالم أجمع، فقال موجهاً كلامه لعثمان:

ـ هل أنت مقتنع بما تقوله، أم أنك من يريد ، والخجل جعلك تدعي بأن ما تقوم به من أجل أختك هدى، وما دخل اسطنبول باليهود؟

ـ تقيم هنا مجموعة كبيرة من يهود العراق والتركمان الذين هربوا أيام الثورات في العراق، ولديهم اتصالات وثيقة مع مراكز الدراسات اليهودية العربية، ويمكنني عن طريقهم أن أعرف أسماء العائلات اليهودية في اليمن والعائلات التي أسلمت كذلك.

ـ اسمح لي أن أقول لك إن أختك لم تجد الرجل العربي الذي يخبرها أن الله حق وأن النبي عربي، ويبدو أنها تعاني من فراغ متعدد الجوانب، عاطفي، ونفسي، واقتصادي وغيرها، لهذا تشغل نفسها بأمور تافهة.

وقال سلامة بطريقة لا تخلو من الحسرة والشبق:

ـ لو أخذ اليهود هدى فإن خسارة العرب ستكون خسارتين واحدة بفلسطين والثانية بهدى، وبالنسبة لي فإن هدى كانت لي كل شيء بعد فلسطين، وعثمان يعرف ذلك ولكنني مع الأسف لم أستطع أن أكون لها شيئاً.

ـ اسمع يا عثمان وأنت يا سلامة هل يمكن أن تدعوا هدى هنا لنراها ونتحدث معها جميعاً ونقنعها بضبابية فكرتها؟

فقال سلامة إن لم تستطع أن تأتي هي، لا مانع أن نذهب لها فهي تمثل جمالاً عربياً وذكاء كفيلين بأن يخرجا لنا جيلاً متفرداً، يجب أن نقوم بذلك حفاظاً على الجمال العربي، فبعد أن أخذ اليهود الأرض والماء، ليس من العدالة أن يأخذوا هدى.

أحس مرزوق بمدى تعلق سلامة بهدى، وبسلبية عثمان كذلك، وتمنى لو أنه يأتي بها ذات يوم على البحر أو في جلسة قات أو في أي مكان قبل أن يلتقي بها صدفة على ظهر دبابة إسرائيلية، ولكنه ترك ذلك للظروف وما تتمخض عنه الأيام، فربما يلتقي بها. وما جعله يتمنى ذلك بعنف أن سلامة الجفالي الذي آراؤه بالأنوثة والجمال، وهي آراء تميل للسلبية، مما جعلته في نظر مرزوق كالخشب الذي لا يحس، يثني عليها هذا الثناء وكأنه بآرائه هذه يلغي كل أفكاره السابقة، أو أن هدى اليهودية العربية لديها ما يقلب موازين القناعات

ويجعـل الآخـرين يقـدمون تنـازلات كـثيرة وصـولاً إلى قناعاتهـا ، ويعـرف مـرزوق أن هنـاك نـساء يـصنعن المعجزات من خلال الرجل في الفن والأدب والحياة، وأن ما يسمى بعصر الانحطاط في التاريخ العربي في الأدب والفن والثقافة عموماً، لم يكن بسبب غياب المواهب والمبدعين، فهؤلاء متواجدون في كل زمان ومكان، ولكن غابت المرأة التي تصنع منهم نوابغ في عصر الانحطاط، لقد كان عصراً غابت فيه شخصية كهدى أو امرأة ترتعش مفاتنها كنيفرا النافرة.

عرف سلامة وعثمان أن مرزوقاً عازم على الذهاب للغداء، فقررا أن يذهبا إلى حمامات الترمال وأن يلتقيا مع مرزوق عند العشاء في بهو الفندق، وقبل أن يذهب مرزوق إلى مطعم حسن بابا، فكر بالذهاب إلى نيفرا، ودعوتها للغداء معه، وحتى يسير كل شيء باتجاه عقارب الساعة، ذهب إلى قارط في حديقة الفندق عند الباب الخارجي، وتكلم معه عن صلة الرحم، ويجب أن يكون الأكبر والأعقل رغم تصرفات أخيه يوسف، وزوجته وأمها، وحين بدا الهدوء في كلام قارط حين

قال له إنه لا يضمر شيئاً عليهم، عرض عليه مرزوق أن تأتي نيفرا وجدتها معهما إلى المطعم، وحاول قارط التهرب من هذه الدعوة بحجة المصاريف الزائدة، وأعذار أخرى لم يكن مرزوق ليقبل أياً منها، ما دامت نيفرا سوف تأتي، إنها حق النقض(الفيتو) الذي يلغي كل المبررات الأخرى.

ذهب مرزوق وقارط إلى منزل الجدة، وحين طرق أبو حسن الباب، كانت عيون مرزوق تجول في الحديقة التي شهدت قبلته الأولى لنيفرا، وحين فتحت الجدة الباب دار الحديث باللغة التركية، وكان قارط حين يتحدث بالتركية تشعر أنه في عراك، ورغم جهله بما يدور من حديث إلا أن مرزوقاً لم يشعر برقة الألفاظ أو المستوى الصوتي الذي يناسب دعوة للغداء، ولأن قارطاً حريص على أن ينفرد بمرزوق فقد بدأ يشك في أن الحديث يتناول الدعوة، فسأل الجدة عن نيفرا، فنادتها الجدة بعد أن استدار رأسها ربع استدارة إلى الجنب، أما جسدها الذي أشعر مرزوقاً أن الكرسي في الحديقة كان صغيراً، فلم يتحرك، وقبل أن تأتي نيفرا، فكر

مرزوق بكمية اللحم الذي يمكن أن تأكله الجدة في المطعم، ولكن تحية نيفرا له قطعت كل الأفكار المأساوية التي كانت تراوده عن الجدة، ويكفي أنها سوف تتكفل بقارط عنه في المطعم.

نقل مرزوق رغبته لها باصطحابها مع الجدة إلى مطعم حسن بابا، مع عمها قارط بالطبع، وحين سألته عن سبب وجود عمها معه أخبرها بملخص للحكاية وأنه ليس أكثر من دليل له، واكتشف مرزوق أن قارطاً والجدة يتحدثان حول الغداء الذي أعدته الجدة، وقد قارب على الاستواء، وكان قارط يقدم الحلول المتتالية من تخزينه أو إحضاره معهم أو تقديمه للجيران، أو الاعتذار، إذا أرادوا، أما مرزوق فكان له اقتراح واحد محدد وهو أن تأتي نيفرا والجدة، ولم يكن يمانع من بقاء الجدة وقارط في المنزل وذهاب نيفرا معه.

أوقف قارط سيارة أجرة بعد أن استعد الجميع ووافقت الجدة، وعرض قارط على مرزوق أن يقعد في الكرسي الأمامي، ولكنه اعتذر بحجة أن الشاب الذي لا يحترم الكبير فهو غير مؤدب وهو لا يريد أن يكون

كذلك، وأن الكرسي الأمامي المفرد في سيارة الأجرة من نصيبه أو نصيب الجدة، ولأن السائق لن يستطيع القيادة إذا قعدت الجدة في المقدمة، لأنه لابد أن يكون لمقعده نصيب من شحمها، فجلس قارط في المقدمة، ودخلت الجدة للمقعد الخلفي، ولم يتبق لمرزوق ونيفرا إلا مساحة لشخص واحد، فعزمت نيفرا مرزوقاً للدخول ودخلت بعده، ليكون مقعدها فخذه الأيمن، وألقت بظهرها النصف عار على صدره، وحرارة الجو ظهراً، جعلته يفتح أزرار قميصه بسرية حتى لامس صدره نصف ظهرها العاري، فاشتعل النصفان حرارة ليكونا واحداً، وتسللت يده اليمنى لتحضن يدها اليمنى ويده اليسرى ممسكةً بمقعد قارط، الذي لا يكف الحديث مع أي إنسان لديه لسان، واكتشف مرزوق أن للبدانة إيجابية كبيرة في مثل هذه الحالة، وأن إيجابية السمنة في هذه اللحظة تلغي كل سلبياتها، فقد جعلتهما واحداً من نصفين مشتعلين، وفي غمرة هذه النشوة تذكر مرزوق أن قارطاً قال له إن المسافة للمطعم تبعد خمس دقائق بالسيارة وأحزنه ذلك، ولكنه تذكر أيضاً أن قارطاً

لديه وحدة قياس مختلفة للمسافات، فكان حين يريد الذهاب مع مرزوق لمكان قريب يقول عنه إنه يبعد فشختين أي خطوتين، ولكن مرزوقاً كان يمشي لنصف ساعة أو أكثر، فهذه عادته حين يريد إغراء مرزوق، فكأنه يسهل عليه الطريق ويقرب المسافة، لأنه ملول من السير لمسافات طويلة.

لماذا لا يقترح على قارط الحبيب مكاناً آخر أبعد من هذا المطعم، دار هذا السؤال في ذهن مرزوق، فبادر.

ـ ألا يوجد مكان أجمل من مطعم حسن بابا، حتى وإن كان أبعد أو أغلى فلسنا في عجلة.

ـ هذا المكان أجمل مكان وحين نصل إليه قريباً سوف ترى بنفسك.

ـ أقصد يا بو حسن إن المكان قريب، ويمكن أن نأتي له أي يوم آخر، طالما نحن في القرية.

ـ ها نحن وصلنا الآن انزل وقرر بنفسك بعد ذلك.

استدارت نيفرا قبل أن تنزل من السيارة ناحية اليمين وهمست وهي تضحك:

ـ لن تنفع خطتك مع عمي، ولا تنسى أن تغلق أزرار القميص قبل أن تنزل.

لقد تأكد مرزوق أن نيفرا تتقن العربية لأنها فهمت حديثه مع قارط ورغم ذلك فقد تكلمت معه باللغة الإنجليزية، إنها تصر على أن يدور كل ما حولها حسب جاذبيتها هي، وإرادتها التي سرعان ما يتقبلها من حولها، فإن ما أرادت أن يكون الحديث باللغة العربية فهي التي ستحدد ذلك.

نزل الجميع إلا الجدة التي كانت تزن أكثر من مئة وخمسين كيلو جراماً، فقد كانت بحاجة إلى مساعدة، حتى تخرج من الباب الصغير، الذي لم يفكر صناع السيارات براحة كل الأوزان فيه، وهي مأساة الشواذ في العالم، فأصحاب الأقدام الكبيرة يجدون صعوبة في شراء أحذيتهم، والطوال يعانون من حجم الأسرة، إنها مأساة لا يعيها إلا أصحابها.

سارت الجدة يرافقها قارط وتبعها مرزوق ونيفرا، والذي لم يحرص على الحديث معها بالعربية، وأخذ

يسايرها باللغة التي اختارت، طالما أحب بها لغة جسدها المرتعش، ولغة الغابة في عينيها، ولغة أصابعها التي أتقنها وأدمنها بعد الدرس الأول حين أوصلها ليلة البارحة، وطالما كانت هناك لغات أخرى أحبها بهذه النافرة، فلم يجد الداعي للغة تعود عليها، حيث أن قناعته في تلك اللحظة أنه يحبها، وربما تكون هي معجبة به أو أقل من ذلك أو أكثر، لا يهم كثيراً إن لم تصل إلى ما وصل إليه من حب لهذه المخلوقة.

لقد كان مرزوق منشغلاً بالنظر إلى عيون نيفرا وإلى الغابة من حوله، وكأنه يقوم بعملية مقارنة بين الغابتين، فكلتاهما تريح من ينظر إليها، وكلتاهما حين تنطفئ الأضواء تنام، وكلتاهما تكون أكثر سواداً من الليل حين تظلم الدنيا، ولكن الغابة مشاعة لكل الناس، وليس لأحد أن يدعي ملكيتها، أما غابة نيفرا فإنها خاصة، وكل من يدخلها لا يريد أن يشاركه فيها أحد.

ـ هذا مطعم حسن بابا، اختر الطاولة التي تعجبك، وهناك نشتري اللحم للشوي.

وبعد أن جلس الجميع على حافة الجبل، حيث يكون الوادي المكتظ بالأشجار مقدمة للبحر، فيجتمع الماء والخضرة ووجه نيفرا، فكر مرزوق لو يقوم بما تفرضه عليه الضيافة العربية عادة من ذبح خروف، وهو موقن أن الجدة يمكن أن تتولى أمره، وتذكر بعض الأصدقاء القدامى، حين كانوا يستنكرون على من يأكل مع امرأة ويعتبرونه لا شهادة له، فمن العيب أن يأكل الرجل مع المرأة خاصة من الطبق نفسه، فابتسم وتمنى لو كانوا معه في هذه اللحظة، لقال لهم اعتبروني بلا شهادة فأنا سوف آكل مع نيفرا وافعلوا ما تشاؤون.

اشترى مرزوق كمية كبيرة من اللحم، إظهاراً لكرم الضيافة ولشيء من التباهي والاستعراض، ورغم أن عادات الناس قد تغيرت إلا أنه لا أحد فهم ذلك، فقديماً حين كان الإنسان يدعو رجلاً للغداء أو العشاء كان يأتي معه ثلاثة أو أربعة أما الآن فإنك تدعو عشرة للأكل وتطبخ لعشرين ولا يحضر أكثر من خمسة، فالأكل في هذا العصر لم يعد يهم الناس كثيراً كما كان قديماً.

وقد حرص مرزوق على شوي اللحم بنفسه مما أتاح له فرصة الابتعاد بموقد النار واللحم عن طاولة الأكل المستطيلة، والتي اغتالت أحد أضلاعها الطويلة الجدة، حين فردت ما لديها من شحم على الكرسي الخشبي المستطيل، بعد أن عانت الالتمام في السيارة.

رافقت نيفرا مرزوقاً للمساعدة والحديث، وجلس قارط مقابل الجدة، وكم كان نحيلاً بالقياس معها فأخرج مرزوق ورقة من جيبه وأعطاها لنيفرا، كان قد اقتطعها من دفتره الصغير الأحمر قبل أن يلتقي مع عثمان البودر في بهو الفندق، فقرأتها:

الأرضُ ضيقةٌ

وواسعةٌ مرايا القلبِ

فاختلطي بماء الروحِ

تتنبه الكرومُ على الشفاه

ودَعي لي الغابات

لستُ مغامراً فظاً

لأترك غابتين وأنتمي يوماً لآه

وتمددي بالطولِ أو بالعرضِ

لا تتشابه الأقرانُ

كي تتشابه الأشباه

أنت استداراتُ السكونِ

وأنت أنفاسُ اللقاءِ

وأنت أعذاقُ الحياة

جاورت فيك بمن أحبُ

ولا أحبكِ فاكتبي

عني اعترافاتِ القتيل إذا تنكرَ للجناة

ويدي خطوط الغيبِ

كيف تداخلت بيدي خطوطكِ

وانكسرتُ لما أراه

أأنا أحبك؟

ما الذي يأتي بصوتك كلما حدقتُ في سمعي

وأطلقتُ السكونَ إلى مداه

ما الذي يأتي..

دعيني أرتقي شبرين للأعلى

لعلي أنتقي همّاً وأهجع في سماه

ما الذي يأتي..

وتضحكُ غابة جاورتُ ربقتها

وأعلنت اللجوء لغابةٍ شقراءَ

تحملها الجباه

وأنا أحبكِ..

هذه مرّتْ على بالي وعادتْ

حينما ضاقتْ بيَ الأرضُ

وظلَّ القلبُ يمتدُّ من الشوق أساه

وبحركة لم تكن متوقعة، قامت نيفرا وقبلته، وأردفت بالعربية "رائعة.. رائعة" وكم كانت الحروف العربية جميلة في فمها، وكأن الحروف أرادت دليلاً

على جمالها وعذوبتها، فاستجارت بنيفرا لتشهد لها بذلك فسألها مرزوق:

- لماذا لم تتحدثي معي بالعربية ليلة البارحة؟

- بسبب خالي والناس عموماً وحتى أراجع معلوماتي الجامعية.

- وهل معرفة اللغات الأخرى عيب؟

- العربية هنا في تركيا نعم، ولكن صدقني يا مرزوق أنني لم أنم ليلة البارحة، أفكر في هذا الموضوع، وكيف يمكنني أن أنسى جذوري، ومن أجل من كل هذا، وقد تذكرت صدفة عمي أبو حسن، لأنه الوحيد من العائلة الذي بقي على طيبة أهل القرية في الاسكندرون ومن روعة الصدف أن أراه اليوم.

- والآن أليس لك صلة بالقرية؟

- أنطاكيا، إن أجمل سنوات عمري قضيتها هناك.

- الطفولة

- وهل هناك سنين تعادلها في عمر الإنسان، ورغم أن لكل عمر ومرحلة خصوصيتها، إلا أن الطفولة تبقى

محببة للرجل والمرأة، للفقير والغني للأبيض والأسود، لكل الناس، أما المراحل الأخرى فقد تجد من لا يحبها.

سرح مرزوق نظره للبحر واختلطت عليه الأفكار وقال في نفسه يبدو أننا نسير بهذه الأرض بأقنعة كما يقول شمس، فلا نعلن عما نحب ونخفي حزننا إرضاء للآخر، وكما يقال إن العالم اجتمع في نفس الإنسان وكل إنسان عالم مختلف، فهدى تبحث عن جذور معادية سمعت بها صدفة من سيدة عجوز، ربما كانت مخطئة، وهذه نيفرا تبحث عن جذورها العربية، فهل مرت على الإنسان أزمة معينة قلبت الموازين وآن أوان اعتدالها كما كانت في السابق. قطعت نيفرا شرود مرزوق قائلة:

- لا أعرف يا مرزوق من أين جئتني، إنني كنت أبحث عنك من مدة طويلة، وقد جئت الآن، لماذا لم تأت مبكراً في عمري، لماذا لم تأت أيام الطفولة في أنطاكيا.

- لتتركيني هناك مع أشجار الزيتون ومعلقاً كأشجار العنب والأشياء الجميلة التي نسيتها في الحاكورة.

ـ بل كنت تشبثت هناك، وأعلنت أنني عربية حتى وإن تبرأ أهلي مني، لقد عشت طوال عمري أشعر بأنني قادرة على أشياء كثيرة ولكن هناك رجلاً ما سيساعدني على ذلك، وأنا في تلك الحالة من الانتظار والترقب، أضعت أشياء كثيرة، وضعت أنا من بينها فلم أجد نفسي منذ ذلك الزمن.

ـ تتحدثين وكأنك قد بلغت سن اليأس، أنت مازلت صغيرة يا نيفرا.

ـ وهل تعتقد أن ضياع سنة أو شهر أو حتى ساعة يجب أن لا نأسف عليه؟

ـ الإنسان العربي يعيش حالتين متناقضتين في آن واحد، فهو دائم النواح على الماضي وفي الوقت نفسه تجدينه يقبل بخسارة كبيرة ولمدة طويلة مقابل أن يرضى أو ينسى في الآخر، أي أنه دائم الحرص على النتائج.

ـ الإنسان في العالم الثالث معذور، لقد مر بأقسى أنواع التجارب حتى أصبح سلعة مهمة للمختبرات، وصار الإنسان والوقت أرخص شيء في العالم الثالث، فماذا

تتوقع من إنسان لا يجد لنفسه قيمة وأهمية، رغم أن الإنسان والوقت هما أغلى شيء في العالم المتحضر.

- وهل له العذر المطلق فيما وصل إليه؟

- المطلق لا يمكن أن ندركه.

- العذر الكامل.

- الكمال لا يكتمل طالما بقيت إشارة (+) تضيف له شيئاً.

- هل تعذرينه بلا تحفظات؟

- حتى التحفظ عليه تحفظ دائماً.

- هل تتهربين من الإجابة؟

- نعم.

- من قال لا أدري فقد أفتى، وصلتني الإجابة وشكراً، واحملي هذا اللحم المشوي إلى جدتك وعمك إن سمحت.

ضحكت نيفرا وهي تنظر إلى اللحم فقالت:

ـ إن جدتي وعمي يستعملان طقم أسنان صناعياً فهما لا يأكلان إلا اللحم المفروم.

ـ جدتك جائز، أما عمك فإنه يأكل حتى العظام وأنا أدرى به.

نهض قارط فجأة عن طاولته وذهب للسلام على رجل طويل القامة أصلع الرأس تماماً إلا ما تبقى من بعض شعيرات فوق الأذنين تمنحه المبرر الكافي لاستعمال الشامبو عند الاستحمام، وتجعل له حقاً في أن يزور صالون الحلاقة كل فترة، فلولا هذه الشعيرات لانقطعت علاقته تماماً مع صالونات الحلاقة.

تركت يد قارط اليمنى المسبحة للسلام على ذلك الرجل، وهو نادراً ما يصافح باليد، ونادراً ما يترك المسبحة الصغيرة البنية إلى إحدى يديه، فكأن يديه لا تثق إحداهما بالأخرى، وبعد أن جلسا إلى الطاولة أشار قارط إلى مرزوق بلطف للحضور حتى يعرفه عليه ولكن مرزوقا في تلك اللحظة لم يكن يريد أن يتعرف حتى على موتى قاموا من قبورهم، ها هي نيفرا معه فمن ذلك

الذي يعنيه في هذه الأرض في تلك اللحظة. فأشار مرزوق بأنه مشغول بالشوي، ولكن نيفرا تداركت الأبعاد وطلبت منه أن يتقرب منهم خشية أن يأتي الجميع إليهم فبادر قارط:

- هذا مرزوق سائح عربي، وهذا الدكتور محمود الخرداوي، وهذا قصته عجيبة يا مرزوق، وهولا يتكلم العربية من سنة تقريباً.

- أهلاً وسهلاً، ولكن لماذا من سنة فقط.

- إنه عربي من عندنا من الاسكندرون، وكان يعمل في ألمانيا طبيباً، وقد وجد طريقة نصب واحتيال من الطرق التي تحترمها أنت وتقدر صاحبها، مثل البولندي الذي سرقك في المجر.

- يعتمد ذلك على الطريقة، فأنا لا أحترم الفكرة احتراماً مطلقاً كما تفهم أنت.

- هذا يا سيدي بالإضافة إلى عمله كطبيب كان يتاجر بالأجهزة الطبية.

فاستدار قارط وتكلم بالتركي مع الدكتور وبعد حوار دام أكثر من عشر دقائق عاد ليتكلم مع مرزوق الذي تساءل:

ـ ماذا كنت تقول له؟

ـ كنت أسأل عن الأجهزة الطبية وقد قال لي أنت تفضحني عند كل شخص لا أعرفه وقد قلت له إنك ممن يحترمون الأذكياء أمثاله.

ـ وما هي الأجهزة تلك؟

ـ كانت الشركات الألمانية تبيع جهاز تخطيط القلب داخل ألمانيا بسعر مئة وعشرين ألف مارك ألماني، وتبيعه للتصدير خارج ألمانيا بسعر ثمانين ألف مارك فقط، وقد كان يشتري هذه الأجهزة للتصدير خارج ألمانيا بسعر ثمانين ألف ويبيعها داخل ألمانيا بسعر مئة ألف مارك بعد التلاعب بأوراق التصدير، واكتشفوا ذلك.

ـ وماذا حدث له؟

ـ رفعوا عليه قضية التهرب من الضرائب والتحايل والتزوير وأوقفوه عن ممارسة مهنة الطب.

نظر مرزوق إلى الطبيب وبدأ يتذكر أيام الدراسة وكيف كان نصف الطلبة في الفصل يتمنون أن يكونوا أطباء والنصف الآخر مهندسين وذلك حين كان يسألهم المدرس عن أمنية كل واحد، وكانت المهن الأخرى حالات شاذة عند الطلبة، فنادراً ما كان يقول أحدهم إنه يتمنى أن يكون مدرساً أو ضابطاً أو كاتباً، فكل هذه المهن دون طموح أولياء الأمور في الوطن العربي.

وقد حدث أن قال مرزوق إنه يريد أن يكون مدرساً، فبدأ المدرس بمضايقته، ربما كان يخشى على وظيفته مستقبلاً من طموح مرزوق، فقد كان المدرس يكثر من الأسئلة لمرزوق وحين يخطئ يبدأ بتوبيخه وإحراجه، ويقول له كيف تكون مدرساً وأنت بهذا الغباء، حتى شعر مرزوق بذلك، فقال ذات يوم للمدرس أنا غيرت رأيي وسوف أصبح طبيباً، عندها عتقه المدرس وكف عن مضايقته.

لقد زرع المدرسون والصحفيون والآباء في أبنائهم أن الطب أشرف مهنة وأفضل عمل، فأين ذلك الشرف وقسم أبيقراط من محمود الخرداوي هذا، وهناك عينات كثيرة من أمثاله، حيث قام طبيب في أحد المستشفيات بتقبيل فتاة أثناء الكشف عليها، وحين اشتكت عليه قامت وزارة الصحة بإنهاء خدماته، فقامت جهة تدعي الوطنية والنضال بالتوسط له وتمت إعادته ولكن بمستشفى آخر.

أحب مرزوق أن يعرف عن هذا الخرداوي أكثر فسأل قارطاً:

ـ لقد قلت أنه من لواء الإسكندرون، فكيف لا يتكلم العربية.

ـ هذه هي مصيبته الأخرى، فبعد أن أوقفوه عن ممارسة الطب، فتح مكتباً للسياحة وكان عمله الرئيسي أن يقوم بتزويج الشباب العرب من ألمانيات حتى يحصلوا على إقامة وجنسية ألمانية، مقابل مبلغ من المال، وأنت تعرف أن الشباب العربي الذي يريد الهجرة كثير.

ـ وهل كان يجد الفتيات الألمانيات لذلك؟

ـ يبدو أنه كان يبحث عن القبيحات وأصحاب الظروف المالية الصعبة لذلك.

ـ عمل إنساني نوعاً ما.

ـ ولكنه غير شريف وفيه احتيال كما تحب أنت.

ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد زوج زوجته، اسمياً فقط لأكثر من شاب، وهي ألمانية، واكتشفوا ذلك بعد أن زوج امرأة واحدة لستة شباب عرب.

ـ وماذا فعلوا له؟

ـ اللّه أنقذه من ذلك حين وقعت له حادثة كبيرة.

ـ كيف ذلك؟

ـ أثناء البحث عنه هرب بسيارته بسرعة كبيرة فوقعت له حادثة ماتت زوجته وابنته وفقد الذاكرة هو لمدة ثلاثة أشهر، وبعد ذلك عادت له ذاكرة اللغة التركية، وبعد شهرين عادت له ذاكرة اللغة الألمانية، أما اللغة العربية فلا يذكر منها شيئاً.

ـ وهل كلن يتقنها قبل ذلك؟

ـ أحسن مني ومنك.

ـ ربما السبب في ذلك أنه لم يجد العرب الذين يتحدث معهم حتى تعود له الذاكرة.

ـ يمكن فنحن لا نتكلم معه إلا بالتركية وفي ألمانيا يتكلمون معه بالألمانية.

ـ وماذا يعمل الآن؟

ـ يا أخي هؤلاء الأجانب عندهم حاجات حلوة بصراحة، تخيل بعد كل الذي قام به، قامت نقابة الأطباء الألمان بالدفاع عنه لأن كل الأعمال التي قام بها لا تسيء إلى الطب ذاته، كلها تجارة فاشلة أو نصب وغيرها، وقد أسقطت النقابة عنه كل التهم وخصصت له مرتباً شهرياً تقاعدياً.

ـ ولماذا لم يعيدوه إلى ممارسة الطب إذن.

ـ نسيت أن أقول لك أنه نسي الطب أيضاً.

ـ إذن يعجبك نظام الضمان الاجتماعي، ألا يوجد لديكم ذلك.

ـ هنا لا يوجد ذلك، ولكن الأجانب غير، ولو فكرت فيها ستجد أن الدكتور محمود ليس ألمانياً في الأصل، ورغم ذلك فإن المساواة والإنسان عندهم غاليان جداً. بغض النظر عن أصل الشخص أو دينه.

أعادت كلمات قارط ذاكرة مرزوق حين كان في ألمانيا، وكيف كانت مدينة هايدل بيرغ تفتح عينيها صباحاً على نسمات نهر النيكر صيفاً، وكيف كانت الجبال التي تحاصر النهر تصحو متأخرة، حيث يصر الضباب الصباحي على البقاء فوق رؤوسها حتى الضحى، وقد كان طريقه إلى وسط المدينة يسير بمحاذاة النهر الملتوي وكأنه أفعى كبيرة تحاصرها الجبال.

في هذه الغابات حيث النهر طوّقها سوارْ

حيث النهرُ كالأفعى تحاصرها الجبالْ

ولتفرَّ من وجه الشمالْ

وتذوبُ في صدر الجنوبْ

وذكرت تاريخ البلادْ

وكيف أنجبت الحروب

حيناً وأنجبت الدمارْ

مازال رغم توسلي يجري القطارْ

حتى وصلتُ إلى المطارْ

وتذكر مقهى الصحافة في الشارع الرئيسي للمدينة، حين تعلقت على جدرانه صور للصحف والمجلات العالمية والعربية، وكانت طاولته في المقهى مقابلة لغلاف عدد من مجلة التايمز و عليه صورة ياسر عرفات، وحديث عن النضال الذي لن يتوقف حتى تحرير الأرض الفلسطينية كاملة، وفي زاوية أخرى الصفحة الأولى لمجلة الأهرام وكلمة للرئيس جمال عبد الناصر يتوعد فيها اليهود، وحيث أن مدينة هايدل بيرغ مدينة طبية، ودراسية وقد اتفق الحلفاء في الحرب العالمية الثانية على عدم ضربها مع عدد من المدن الألمانية، فقد كان مقهى الصحافة يضم مجموعة من الطلبة أيضاً، حيث أن رواده في الغالب منهم، وتذكر النادل حين حياه بتحية عربية وقد كان لاجئاً هناك.

فادخلِ الحانةَ تلقَ

مدن الصيفِ التي تألفها منذ الصغرْ

واخلع المعطفَ

يكفيك الذي تحملُ في صدركَ

من همٍّ ثقيلٍ كالحجرْ

حينما تذكرُ أحوالَ العربْ

ها هو النادل حياك بصبحٍ عربيٍّ واحتجبْ

لاجئاً يبحث عن أرضٍ وبيتٍ

وجوازٍ للسفر

حيث لم تتسع الآن له أرضُ العربْ

ذلك العربي الذي تقدم بطلب اللجوء السياسي، وحين خسر الدعوى بالحصول على اللجوء السياسي لعدم وجود أسباب سياسية في بلده تدعو لطلب اللجوء، ولعدم وجود ملاحقات أمنية له، ولأنه ادعى بأنه مطارد ولا يستطيع العودة لبلده، نظرت المحكمة نظرة إنسانية وقالت له، إن كل ما قلته لم نسمع به من قبل فبلدك

آمنة ومستقرة ولكننا نخشى إن أعدناك عنوة إلى بلدك أن تموت هناك لأسباب لا نعرفها، لهذا فنحن نعطيك لجوءاً إنسانياً، أي أننا نوفر لك المسكن وراتباً يعينك على المعيشة ولكننا لا نمنحك الجواز الألماني.

إن ما تقدمه الدول المتحضرة في مجال الإنسانية مهم جداً، فليس غريباً أن يعامل الدكتور محمود الخرداوي بهذه الصورة، والإنسان والوقت أهم شيئين في الدول المتحضرة كما قالت نيفرا. هنا تذكر مرزوق نيفرا قرب الموقد تقوم بالشواء، وحين التفت إليها وجدها تتابع حديثه بابتسامة رقيقة ونظرة إعجاب.

استأذن مرزوق قارطاً والجدة وذهب إلى نيفرا لمتابعة بقية شواء اللحم الذي شارف على الانتهاء، وحين وصل إليها بادرته:

ـ كنت أتمنى أن أحضنك وأقبلك، كم كانت ملامحك رائعة وأنت تتكلم، وكم كانت ابتسامتك مثيرة، حتى أن جدتي تنظر إليك بإعجاب رغم عدم فهمها لك، وهي نادراً ما تعجب بأحد.

ـ كنـت أعتقـد لأنهـا سمينـة فهـي صـاحبة نكتـة وظرافة.

ـ لا ، إنهـا جـادة أكثـر مـن اللـزوم، ربمـا ذلـك لأنهـا عانت كثيراً في حياتها وما يحزنني منها أنني أشعر بأنها لا تثق بتصرفاتنا.

ـ ماذا تقصدين بتصرفاتنا ، هل تقصدينني أنا معك.

ـ أقـصد كـل الـشباب الـذين مـن عمرنـا ، فـنحن في نظرها أطفال ولا نتقن شيئاً في هذه الدنيا.

ـ أي شـيء؟

ـ أي شـيء.

ـ حتى الحب يا نيفـرا ، إنـني أراك معلمـة بـل مدرسـة أو جامعة.

ـ ومـاذا أقـول أنـا أمـام نظرتـك الغامـضة المـثيرة وابتـسامتك الجذابـة الرائعـة ، يبـدو أنـك لا تعـرف أنـك تـستطيع أن تـستأثر باهتمـام الجالـسين في أي جلسة ، إن طريقتـك في الحـوار تحـول الحـزن إلى فـرح واللـهو إلى معرفة.

أحس مرزوق بأن العلاقة مع نيفرا والتي لم تمض عليها أربعة وعشرون ساعة أخذت بعداً آخر، حب من نوع خاص، بل هو الحب الذي يؤمن به مرزوق، ويأتي على غفلة وبسرعة، لا الحب الذي يتربى ويكبر مع الأيام كالعشرة، فالحب شيء مختلف عن العشرة التي تدخل في علاقة الصداقة والزمالة، وبينما يحاول مرزوق أن يمسك يد نيفرا سحبت يدها خوفاً من جدتها وعمها، وقالت له:

- لا أريدك أن ترافق عمي، فأنت لا تحتاج إلى دليل.

- ولكنني أحب أحاديثه وأتسلى معه.

- اسمع يا مرزوق إن عمي كثير الكلام.

وبدأت تتلعثم، لأنها أخفت شيئاً كانت تريد قوله وترددت فبادرها:

- ماذا به؟

- ألم يحدثك عني أبداً؟

- بالطبع لا.

- أبداً... أبداً؟

ـ أبداً، ماذا هناك إنك تدفعينني إلى سؤاله إذا لم تتكلمي، وهو لا يخفي شيئاً.

ـ أعرف ذلك جيداً عنه، أرجوك يا مرزوق أنا غداً عائدة إلى اسطنبول وأريد أن أراك هناك، متى تعود؟

أحس مرزوق بصدمة في بداية حديثها، لولا أنها طلبت رؤيته هناك.

ـ بالطبع سأعود معك، أنا لا أشعر بأي شيء يدفعني للبقاء هنا إلا أنت الآن، فبعد أن كان إعجابي بالمناظر، أصبحت منبهراً بك أنت.

ـ على شرط أن تعود وحدك.

ـ ولكن الليل الذي هو مدركي كيف يمكنني الخلاص منه.

ـ تصرف، هذا هو عنواني ورقم هاتفي ولا تكلم عمي بشيء حتى أراك غداً هناك.

عاد مرزوق ونيفرا ببقية اللحم المشوي إلى الطاولة وما أن جلسا حتى بادر بو حسن قارط مرزوقاً:

ـ هل ستعود غداً إلى اسطنبول؟

كيف عرف هذا الرجل أنني سأعود غداً سأل مرزوق نفسه هذا السؤال وبدأ يبحث عن إجابة، هل هو ساحر أم أنه علق أجهزة تنصت عليه. ولكن مرزوقاً لم يهدأ حتى عرف أن بو حسن خمن ذلك بعد أن عرف من الجدة أن نيفرا ستعود إلى اسطنبول غداً، وحتى يذهب كل شك ويعيد لقارط أهميته التي بدأت تتزعزع عند مرزوق منذ أن عرف نيفرا، قال له مرزوق:

ـ أنا ليس لي أي خيار أنت الدليل وأينما تريد أن نذهب فأنا معك.

أحس قارط بشيء من الزهو ووعد مرزوقاً بأشياء جميلة أخرى هنا في كوك شدره أو في بورصة حتى العودة إلى اسطنبول.

ولكن مرزوقاً بعد ذلك الوعد لا يرغب برؤية أي شيء غير نيفرا أو رؤية أي مدينة ليس بها نيفرا، وقد وعد مرزوق نفسه بأنه سيجد العذر المناسب الذي يجعل قارطاً نفسه حريصاً على العودة إلى اسطنبول.

تمتع الجميع باللحم المشوي حتى الطبيب العربي التركي الألماني محمود الخرداوي والذي يزور تركيا كسائح ألماني وجد في الصحبة ما يسري عنه فقده لزوجته ولطفلته، إلا أن فرحة مرزوق أكبر لأنه يفكر بالعودة و بالسيارة الضيقة التي سوف تجعل نيفرا أكثر التصاقاً به. وبعد الأكل وشرب الشاي بدأ مرزوق يستعجل الجميع في العودة، فطلب قارط من مرزوق العودة إذا أراد مع الجدة ونيفرا لكي يستريح في الفندق وأن يعود هو مع الدكتور محمود بسيارته فيما بعد حيث يقيم في الفندق نفسه. ولأول مرة هنا يشعر مرزوق أن وجود قارط ضروري له، وهو الذي منذ أن تعرف على نيفرا يشعر أن وجود قارط متعب له، إن غياب قارط سوف يمنعه من الجلوس معها في السيارة في المقعد الخلفي ولن يفتح أزرار قميصه ليشعر بذلك الدفء الآسر يسري في جسده، أوقف مرزوق سيارة أجرة وركب في المقدمة فهو في حالة من خيبة الأمل، وما أن دخلت نيفرا خلفه حتى قالت باللغة الإنجليزية:

ـ إن غياب عمي فرصة لنا حتى نذهب إلى حمامات تيرمال المعدنية، إنه أفضل مكان أراك فيه.

أحس مرزوق أنه صعق كهربائياً، وأدرك أن نيفرا أحست بخيبة أمله ولكنها أحبته إلى الحد الذي لن تسمح به لأي ظرف أن ينغص عليه فرحته، ورغم أن مرزوقاً قد زار الحمامات المعدنية صباح أمس إلا أنه ادعى بأنه لم يرها وأنه يتمنى ذلك.

ضحكت نيفرا وقالت له، إذا أردت أن تكذب فتعلم أن لا تنسى وحين سألها مرزوق عن معنى ذلك قالت:

ــ لقد أخبرتني البارحة أنك استمتعت بحمامات تيرمال صباحاً.

ـ وهل الحمامات بدونك كالحمامات معك؟ هل كوك شدرة بدونك تبقى كوك شدرة؟ وهل تركيا بدون نيفرا تصبح البلد الذي أحبه أكثر من غيره؟

ـ سوف ننزل أنا وجدتي في البيت وسأحضر ملابسي واذهب أنت إلى الفندق وافعل ذلك، وسنلتقي في الحمام الملكي.

ـ ولكن احذري أن تأتي جدتك معك.

ـ ضحكت نيفرا وقالت بالطبع لا، واحذر أنت أن يعرف عمي أين ذهبت وإلا...

ـ أعرف ذلك ولكنه بكل أسف كالليل الذي هو مدركي، وسوف أتدبر عذراً لتضليله.

كانت حمامات تيرمال المعدنية تبعد عن منزل نيفرا وعن الفندق مسافة خمس دقائق سيراً، وقد حرص مرزوق أن يخفي ملابسه جيداً حتى لا يراها أحد من عمال الفندق فيعرف قارط بذلك ويفاجئه كالعادة، وبعد تردد قام بمناورة تأكيداً على إخفاء نفسه فطلب من موظف الاستقبال أن يخبر بو حسن أن ينتظره هنا لأنه التقى بصديق من بلده ودعاه لشقته قريباً من هنا وأنه لن يتأخر.

وما كانت إلا دقائق حتى كان مرزوق في صالة الاستقبال في الحمام الملكي الأفضل بين الحمامات هناك، وبينما هو في حالة ترقب دخلت عليه نيفرا باسمة وطلبت غرفة مزدوجة، ودخل الاثنان، وما أن بدأت نيفرا تلقي ثيابها كانت عيون مرزوق تراقب وكفه تراقب، وكأن كل ما في الغرفة منتبه يحدق في وجوم ورغم أن مرزوقاً لا يحب الماء الساخن كثيراً ويخاف منه أحياناً، ورغم أن المياه في الحمامات تقترب من الغليان، ولم تحرص نيفرا على تخفيف حرارتها، لأنها تحب الماء هكذا، رغم كل ذلك فإنها حين التف ذراعها على رقبة مرزوق وهي شبه عارية وكذلك مرزوق وسحبته إلى الحوض الساخن لم يشعر مرزوق بحرارة الماء، لأن حرارة نيفرا في تلك اللحظة كانت أكثر ولأن أعصابه كانت منشغلة بنيفرا فلم تكن لتشعر بشيء آخر.

مرت الساعة المخصصة لهما وهما في حالة فوضى رائعة لم يعهدها أحد منهما من قبل، وحين طرق عامل الاستقبال الباب ليشعرهما أن الساعة انتهت صرخت عليه نيفرا أن يجدد لهما ساعة أخرى.

إن درجة حرارة المياه والأبخرة المتصاعدة وحالة الفوضى والهمجية التي كانا بها جعلتهما في حالة إرهاق، وأجسادهما العارية أصبحت حمراء جداً وخد نيفرا أصبح كالرمانة الحمراء أو كمن ضغطت حتى احمر خداها، ولكن نيفرا لم تكن لتستبدل بهذه الساعة أخرى تقضيها بسماع نصائح جدتها، ومرزوق كذلك لم يكن ليستبدل بهذه الساعة أخرى يستمع فيها إلى قارط.

وبينما هما في حالة الاسترخاء الحميم، أو الراحة التي تسبق الهياج السابع أو الثامن، لقد ضاع العد حقاً عليهما، ولماذا العد أصلاً، وهل هما حريصان على التسجيل في كتاب غينيس للأرقام القياسية؟ طرق الباب موظف الاستقبال ليخبرهما أن الساعة الإضافية انتهت، فالتفتت نيفرا إلى مرزوق المستلقي على أرضية الحمام الباردة، وهو في حالة لهاث، فابتسم لها ابتسامة فهمت منها ما يريد، فقالت بصوت ضاحك:

ـ جدد لنا ساعة أخرى من فضلك.

واستدارت لتلتوي عليه وهي تهذي، أحبك، أموت فيك، إذا تركتني راح أموت، فاحذر أن تتخلى عني، احذر سوف أموت، فمد مرزوق ذراعه المتعب الذي التف حول خصرها النحيل، وكان يعرف أن لكل مقام مقال، وأنه لكل وقت وزمان لغته الخاصة، وفي وضعه لم تكن الكلمات هي اللغة المطلوبة ولن ينفعها أن يقول لها أنه لن يتركها، إنه لن...

لقد خطرت له فكرة كتاب غينيس للأرقام القياسية، وتساءل وماذا في ذلك؟ إنها فكرة رائعة، فابتدأت الفوضى مرة أخرى وكأنها بداية جديدة، وجولة لم يتم رصد رقمها مما أحزن كتاب غينيس أن يفوته ذلك.

خرج مرزوق ونيفرا إلى صالة الحمام الملكي وحاول مرزوق أن يقوم بدفع أجرة الساعات الإضافية انطلاقاً من العادات العربية. ولكن نيفرا كانت أسرع منه، وقالت له بعد الدفع بابتسامة غير بريئة، لقد كان هذا اليوم يومي وأنت فيه ضيفي.

ولم يعرف مرزوق ماذا يقول، ومن الذي كان ضيفاً على الآخر.

وكـان هنـاك طريقـان مـن الترمـال واحـد يـؤدي إلى الفندق مباشرة والآخر إلى وسط القرية، وقد سلك كل واحـد منهمـا طريقـاً، وبينمـا يـسير مـرزوق في الطريـق المنحدر إلى الفندق، شـاهد بـو حـسن قـارط يـسير أمامـه وتعمـد مـرزوق أن لا يـشعر قارطـاً بوجـوده خلفـه، وقـد كـان كعادتـه محـدودب الظهـر ويمـسك بيديـه الاثـنـتين سـبحته الـصغيرة وسـيجارته في فمـه،وحـين ألقـى عقـب السيجارة كـان كعادتـه أيضاً قـد تعمـد أن يتحاشـى أن يـدوس عليـه، وحـين وصـل إليـه مـرزوق داس عليـه، وبـدأ رحلة التفكير في إقنـاع قـارط بـالعودة إلى اسـطنبول دون أن يـشعر بالـسبب الحقيقـي، وعلـى بـاب الفنـدق لامـست كف مرزوق كتف قارط، وقال له أين كنت يا هـراب، فـرد عليـه قـارط بعـد أن لاحـظ احمـراره مـن الحمامـات الساخنة.

ـ نعيماً، هل كان الحمام جيداً.

ـ نعم.

صمت مرزوق بعد ذلك وبدأ يسأل نفسه حيث أصبح على قناعة تامة أن معرفة الرجل لها أسبابها التي يجهلها وبدا عليه الحزم وهو يستجوب قارطاً.

ـ بصراحة أنا أشعر أنك تستخدم من يراقبني، وأنا كما قلت لك لست طفلاً صغيراً، وأرجو أن توقف هذه المهزلة، فأينما ذهبت أنت تعرف بذلك، يا بو حسن هذا مالا يحتمل عندي.

ـ كل هذا من أجل الحمام؟

ـ هذه واحدة من ألف.

ـ أنت تعطي الأمور أكثر مما تستحق، فكل ما هنالك أن وجهك أحمر كالمحروق من المياه الساخنة، أنظر في المرأة وأنت تعرف ذلك.

أحس مرزوق ببعض الندم، ولكنه وجدها فرصة حتى يصعد الحدث الذي قد يقوده إلى اسطنبول، وبينما مرزوق صامت، ولم يبدي لقارط أي إشارة توحي له بأنه

اقتنع بالتعليل، أدرك قارط أن مرزوقاً لديه ما يخفيه، فهز سبحته على شكل نصف دائرة وقال له.

- يبدو أن كوك شدرة لم تعجبك كثيراً، فلنسافر غداً إلى اسطنبول حيث أنك كالسياح العرب إجمالاً تحب الازدحام والضجيج ولا تعجبك الأماكن الهادئة كالأوروبيين عموماً.

ابتسم مرزوق بالخفاء وقال له:

- يبدو ذلك يا بو حسن فلنسافر غداً في أي وقت تشاء.

وفي المساء كان في بهو الفندق مرزوق وسلامة وعثمان البودر الذي كان لابساً طاقية تركية وبيده سبحة طويلة، وكان شعر ذقنه في حالة ترقب لشفرة الحلاقة التي ودعته لأكثر من أسبوعين. وآثار التجاعيد على خده من الفترة الطويلة التي كان يخزن فيها القات واضحة، وقد اضطجع على الكنبة مما يعطي انطباعاً بأنه قد ألقى الخجل الذي راوده في بداية لقائه مع مرزوق ظهراً، أو أن الإرهاق من الحمامات قد نال منه،

ولكن سرعان ما أحس مرزوق أنها ليست هذه ولا تلك إنه في أحد أطوار الدروشة بهذا الزي. وكان قارط منشغلاً مع السيد رحمي في حديقة الفندق الخارجية.

تحدث سلامة في الطبيعة والمناظر الخلابة وبدأ مقارنتها بدول أخرى ولكن حديثه لم يجذب سمع مرزوق المتعب والفرح من أحداث اليوم، وكذلك لم يستأثر باهتمام عثمان المضطجع على الكنبة وكأنه أحد دراويش السلطان العثماني، فاستلم عثمان جادة الحديث وتكلم عن الخوارق الطبيعية والكرامات بعيداً عن الجن، وبدأ يستقطب كلامه مرزوقاً المتعب، أما سلامة فقد كان منتبهاً لكل شاردة وواردة حتى لنظرات قارط حين يدخل كل بضع دقائق إلى باب الفندق ويلقي نظرة فاحصة على المجموعة ويعود إلى مكانه مع السيد رحمي.

وبعد أن وصل عثمان إلا أنَّ مرزوقاً وسلامة على قناعة بالخوارق وبالاتصال العقلي بين بعض الناس دون أن يكون هناك تعليل علمي لذلك، قال لمرزوق لقد وصلتني رسالتان من هدى إحداهما لي والثانية لك.

ـ لي أنا ، حسناً أين هي؟

ـ إنها رسالة بالاتصال العقلي وليست مكتوبة ، وأحياناً تكون رسائل مكتوبة ولكنها تملى على الإنسان الموصل لها وليست رسائل بريد.

ـ وما هما الرسالتان؟

ـ أتمنى يا مرزوق أن لا تكون ساخراً فهناك أمور لا يستطيع الإنسان تفسيرها ولكنها موجودة ، كالرؤيا والأحلام ، ولا أدل من الاتصال العقلي على قصة عمر بن الخطاب وسارية حين قال له "يا سارية الجبل" وكان يريد أن ينبهه إلى الاحتماء بالجبل.

ـ قرأت هذه القصة ، ولم أجد لها شرحاً مقنعاً غير أنها من كرامات عمر بن الخطاب ، وأنا لست ساخراً بل يفرحني أن أكون معنياً بأمور الخوارق ، إنها مما يناسب شخصيتي الملولة والتي لا تحب الاستقرار مدة طويلة على شيء ، إنها محبة للتغيير بل ومغرمة به ولا أعرف لماذا ، فهي تتعبني كثيراً وأحاول أن أكون لا مبالياً أحياناً.

ـ حسناً الرسالة التي لي ويعنيك أمرها من بعيد، أن هدى قالت لي وأنا في حمامات الترمال استمر بما ذهبت من أجله ولا يثنيك مرزوق عنه لأي سبب كان، والرسالة التي لك هي أنها أهدتك وأنت في الغرفة المجاورة شيئاً من جنونها دون أن تدري، وستكتشف ذلك بنفسك، وأنها سوف تلتقي بك قريباً.

صمت مرزوق وبادر سلامة:

ـ هل ذهبت يا مرزوق إلى الحمامات اليوم، وهل كان معك أحد؟

ـ نعم... نعم وهل قالت شيئاً آخر أو ما هو الجنون الذي تعنيه.

ـ لا أعرف حقيقة ولا أدري أنك كنت معنا في الحمامات اليوم، ربما تكون لها رسائل أخرى ونعرف ذلك منها.

أطبق الصمت على الجميع وبدا مرزوق أكثر تعباً، فأخبرهم أنه ذاهب إلى اسطنبول غداً، فاستنكرا عليه ذلك وتعذر بحجج كثيرة ووعد بأن يراهما هناك،

وكان سلامة قلقاً بعض الشيء أما عثمان فلم يغير من جلسته ولسان حاله يقول إنه سوف يراه أينما يكون إذا أراد ذلك، وإذا ما كانت هناك رسالة له فهو من سيسعى دون أن يدري ليلتقي بعثمان ليستلم الرسالة.

وبعد أن استأذنهما للنوم، داهمته نيفرا بالخيال وهو على الوسادة وأخذ يسأل نفسه بصوت مسموع هل أنت إنس أم جن وهل ما كان منك من جنون وفوضى هو جنون هدى، إن لم تكوني كذلك يا نيفرا أو كنت كذلك، لقد اشتبهت كينونتك لي ولم يعد لي شيء واضح المبتدأ و المنتهى منك أو منها، هل تداخلتما إلى حد ألا تمييز بينكما، وأنا أعرفك أنت، ولكنها تعرفني، فهل تكتمل المعرفة إذا ما كانت أحادية الأطراف؟ هل يصبح الصوت صوتاً بلا أذن تسمعه؟ وهل يمكن أن نقول إن هذه الأذن صالحة للسمع دون صوت تسمعه؟ إننا يا نيفرا أو يا هدى لا أعرف ما أناديك به، لسنا من الحشرات أو الكائنات الأولية التي تتكاثر بالانشطار إننا أرقى قليلاً من الكائنات أحادية الخلية، إن دائرة المعرفة لم تكتمل فيما بيننا فأنا أعرفك وهي

تعرفني ولا أعرف من منكما يعرف الآخر، لو عرفت ذلك لعرفت مع من كنت هذا المساء، إنها عرفت فيما بيننا يا نيفرا دون أن يعرف عمك أبو حسن الذي لا تفوته شاردة أو واردة، فاسمحي لي يا نيفرا أن أمارس معك أول خيانة وأسرع خيانة في العالم لحب كبير كالذي بيننا، واسمحي لي أن أتمنى معرفتها ولقاءها واسمحي لي أن أنتظر منها رسالة أخرى بشوق، إنني ملول بطبعي ولكن ليس لهذا الحد، فأنت لم تستنفدي أي دائرة بيننا من دوائر الإعجاب أو الحب أو الرغبة أو متعة الحوار أو حتى دائرة الانبهار حتى أكون ملولاً منك، ولكنها هدى ولا بد لي أن أعرف عنها حتى لو كان ثمن ذلك خسارتي لكل الدوائر التي بيننا، وأن أكتفي بدائرة الذكرى الجميلة، والتي لا تظهر إلا بالبعد.

استسلم مرزوق للنوم بعد أن بطنت جفنيه "قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا". بعد أن دارت هذه الهواجس في عقله سريعة وجسدها لسانه صوتاً مبحوحاً يبحث عن أذن تسمعه وتجيب على تساؤلاته التي أنجبها رسالة هدى له.

الفصل الرابع

ركب مرزوق وقارط السفينة البحرية البطيئة صباح اليوم التالي، وكانت رغبة قارط في هذه السفينة تكمن في أنها أرخص من السريعة المغلقة، وكانت رغبة مرزوق تكمن في أنه يستطيع التنقل من الداخل إلى السطح حيث الهواء البحري وحيث يتمكن من رؤية المناظر على الجانبين، حيث الجزر الخضراء الجميلة.

وبينما هما مرتخيان على أحد المقاعد الجانبية المواجهة للبحر، استدار قارط بنظرته إلى داخل السفينة، وبدأ الاثنان يراقبان امرأة يجلس بقربها شاب من لواء الاسكندرون يقوم بالترجمة لها، وقد بالغ في حلاقة لحيته وشاربيه حتى بدا وكأنه مطلي بالشمع، ويبدو أن هذه السيدة قد زوجت بناتها الأربع والخامسة تجلس قربها تراقبها وهي مأخوذة بابتسامة ذلك الشاب،

الذي أحس أن إتقانه للغة العربية ربما لا يكون كافياً في بعض الحالات، ويمكن أن يتحمل من أجل لقمة العيش تصابي تلك المرأة عليه، ولا مانع من أن يقوم المترجم في بعض الأحيان بإبداء إعجابه بالتجاعيد التي تملأ الوجه على أنها دليل خبرة وعلامة للجمال أحياناً، إنه يتقن كلمات الغزل التي تحتاجها المرأة في سن نادراً ما تسمعها ممن حولها، إن حركاته توحي بأنه يعيش حالة حب كالتي يعيشها مرزوق مع نيفرا ولكن ذلك الإيحاء سرعان ما يتبدد حين تحاول أن ترى الصورة كاملة، وتقع عيناك على تلك المرأة المأخوذة بابتسامته إن تجارة العواطف ليست جديدة على العصر الحديث، ولكنها تبرز بشكل ملفت في المجتمعات الأرستقراطية.

قاطع لحظات التأمل عند مرزوق حديث قارط:

ـ إن هذا الشاب من عندنا، وأعرف أنه يدرس بالجامعة، ما الذي دخله لمهنة مرافقة السياح.

ـ إن للجامعة مصاريف ولوازم ويبدو أنه بحاجة لذلك.

ـ أنظر لحركاته، إنه غير محترم مع الزبائن.

ـ آه لو تسمعك تلك المرأة لرأيت منها ما لا يسرك، وجميل منها لو اكتفت بإلقائك في البحر.

ـ فشرت.

ـ يا بو حسن إنها الآن في حالة اتقاد وربما تكون عواطفها في هذه اللحظة عبارة عن مجموع عواطفها التي لم تستعملها لعشرين سنة مضت، هل تستطيع أن تواجه طاقة مكبوتة من عشرين سنة؟ هل تستطيع أن تبطل مفعول هذه القنبلة.

ـ أي طاقة وأي قنبلة، المرأة في هذا السن تبحث عن حسن الختام.

ـ هل التعامل مع مشاعر الإنسان يتعارض مع حسن الختام، هل الرجل حين يبقى على حب زوجته يناقض الختام، وهل الختام هذا يدعونا إلى معاملة المرأة كصديقة ونكتفي بالاحترام المتبادل وكأنها رجل آخر؟

ـ يا رجل وهذه ماذا لديها من ذلك، شمعة وخلصت.

ـ وأنت ماذا لديك؟

ـ أنا رجل.

ـ لن أجيبك إجابة تقليدية وأقول لك وهي امرأة، لأن هذا التعريف فارغ من المحتوى مثلما تعرف الرجل بأنه رجل.

انتبهت المرأة والشاب الوسيم إلى مرزوق وقارط حين ارتفع صوتهما قليلاً، ويبدو أنها طلبت منه أن يجد مكاناً آخر بعيداً عن عيون هذين العربيين، فقام الاثنان وتبعتهما شابة فارعة الطول، ويبدو أنها ابنة المرأة وقبل أن تغادر أطالت نظرتها لمرزوق وكأنها تحاول أن تتذكر أين رأته من قبل أو أنها تحاول أن تعرف البلد الذي ينتمي إليه، وحين انصرفت شاهد مرزوق آلة تصوير على مقعدها فأدرك أنها تخصها، فالتقطها وتبعها حتى أدركها على السلم المؤدي إلى السطح حيث أمها والشاب الوسيم الحليق جداً، فقال لها:

ـ لو سمحت لقد نسيت آلة التصوير.

ـ شكراً من أين أنت؟

حاول مـرزوق أن يعـرف عنهـا أكـثـر ووجـدهـا فـرصـة للـدخول إلى عالمهـا في هـذه الرحلـة القـصيرة، أمـا في اسطنبول فهناك نيفرا النافرة.

ـ أنـا عربـي تركـي أعمـل مترجمـاً للعـرب، هـل مـن خدمة أقدمها لك؟

ـ والرجل الذي معك.

ـ إنه عربي من الجزائر، أقوم بالترجمـة لـه وأسـاعده في معرفة أماكن السياحة.

ـ إذن أنت مرتبط معه.

ـ من أجلك أفسخ كل عقود الارتباط في هذه الـدنيا إن أردت ذلك.

ـ ابتـسمت ابتـسامة عريضة، وقالـت لـه سـوف أخـبر أمي أنني في الأسفل فانتظرني.

وبدا الارتباك على مرزوق، وأحس بشـيء مـن النـدم، إنـه لا يريـد الكـذب، ولم يجـد في كلماتـه أكثـر مـن مجاملة لطيفة، فماذا يصنع لو اضطر للحديث بالتركي أمامها، أو أنها سـألته عـن أشـياء، وذلـك الـشاب الوسـيم

لو حضر، أشياء كثيرة دارت في ذهنه قطعته عليها حين وجدها أمامه تسأله عن اسمه.

ـ مرزوق.

ـ وهل أنت متزوج؟

صمت مرزوق ليسأل نفسه وما دخل الزواج بالترجمة، فقال لها كنت، فأجابت بكبرياء

ـ أحسن شيء عملته.

ـ ماذا الزواج؟

ـ لا، الطلاق.

ـ وكيف يكون الطلاق شيئاً جيداً بنظرك.

ـ أنا فنانة، ووجهة نظري أن الفنان يجب أن يتزوج حتى ينجب ثم يطلق حتى يصبح حراً، يمارس فنه بهذه الحياة.

ـ ولكنني لست فناناً، ولماذا الزواج أصلاً إن كان لا بد من الانفصال.

ـ من أجل الأبناء وحتى لا يندم على عدم الإنجاب، فأنا مثلاً أنجبت طفلة وطلبت الطلاق، لأن الزواج لا

يساعدني على الإبداع وخاصة الزوج الشرقي، الذي لا تشكل له المرأة إلا وعاء وجرسوناً، وعامل نظافة، ومربية، ومظهراً اجتماعياً أحياناً.

- وأنت فنانة بأي شيء.

- أرسم.

- فن تشكيلي.

- نعم.

- نسيت أن أسألك عن اسمك.

- ليلى.

أحسَّت ليلى أن هذا المترجم لا تشبه دبلوماسيته مترجم أمها، وأن لهجته قريبة من لهجتها، فقالت له:

- إن لهجتك ليست...

فقاطعها:

- لقد عشت في بادية الأردن فترة طويلة.

- أريدك دليلاً لي وحدي، فأمي عندها رامي يترجم لها ويفسحها.

ـ سأراك في اسطنبول لأرى فنك، وبعد أن أتخلص من أخونا الجزائري.

ـ عنواني فندق عتابا مرمرة غرفة ٥٠٢

ـ وأمك معك؟

ـ أمي ٥٠٣

ـ إلى اللقاء في عتابا مساء.

ـ كلما تأخرت كان أفضل، وابتسمت .

كان لكلمتها الأخيرة صدى مختلف، إنها لا تريد دليلاً في آخر الليل، أشياء أخرى تكون في ذلك الوقت عادة، وحين عاد إلى قارط وجده يقف أمام الشنط استعداداً للنزول وقبل أن تقف السفينة قرب المرسى، ألقى قارط عقب سيجارته على المرسى وقد كان يبعد مسافة مترين عن السفينة، فنظر إليه مرزوق وقال له:

ـ البحر أمامك يا بو حسن، لماذا أنت حريص على أن لا تنطفئ سيجارتك إلا من تلقاء نفسها.

ضحك قارط وضحك مرزوق لذلك، ونزلا معاً، وطلب مرزوق من قارط أن يأخذه إلى فندق عتابا مرمرة

ووافق قارط وسأله هل المرأة العجوز وابنتها تسكنان هناك، وابتسم مرزوق من سرعة بديهة قارط، وأنه ممّن لا يخفى عليه شيء فأراد مرزوق أن يشتت تفكير قارط فقال له إنهما تسكنان في فندق "كنت" فقال قارط:

- إنه الفندق الذي كنت أعمل به وهو جيد.

- ولماذا تركت العمل فيه؟

- صاحب الفندق هو صاحب حملة الحجاج الذي كنت أذهب بها للحج.

- فلنذهب إليه إذن.

- أعوذ بالله، لن تراني أبداً، إنه يمنعني حتى من الاقتراب من شارع الفندق، عتابا مرمرة أحسن.

وصل الاثنان إلى الفندق وطلب مرزوق غرفة بعد أن شغل قارطاً بالشنط وقال إنه يفضل الدور الخامس، وإذا كانت الغرفة ٥٠١ فارغة تكون أفضل خياراته، وبعد البحث حصل على غرفة ٥٠٩ ونقل شنطه بسرعة قبل وصول ليلى وأمها ومترجمها.

قضى مرزوق فترة الظهر بالأكل والاستحمام والراحة، وفي العصر قرر التجول في محيط الفندق، فقطع الشارع باتجاه البحر، يمتع عينيه باللون الأزرق بعد أن حاصره اللون الأخضر والغابات لعدة أيام في كوك شدرة، كم كان البحر جميلاً، وكم اشتاق إليه، لأنه لم يفارق البحر منذ طفولته. فقد عاش في بيئة بحرية، بدأت حياته مع البحر حين تختن، ففي اليوم الثاني ذهبوا به مع أبناء حيه إلى البحر حتى يبرأ جرحه، وتعلم السباحة بعد ذلك وأدمن عليها، ولا يعرف سبباً لضربه من الأهل كلما سبح في البحر، فقد كان مجانياً ولم يكن دافع الخوف عليه موجوداً عند والدين تشغلهما ظروف الحياة، فقد كان ضربهما له يؤذيه أكثر من أي شيء يمكن أن يؤذيه في البحر، وقد كان البحر بالمجان، ولم تقم الفنادق بعد باقتسامه وحجزه لروادها فقط، ففي كل مرة يسبح فيها يضطر إلى أن ينشف سرواله بالشمس، وإلى غسل وجهه ببقايا الماء العذب الموجود في المواسير التي تمتلئ بواسطتها خزانات المياه العذبة فوق سطح البيوت والمدارس

والمستشفيات القريبة من البحر، وحين يرى الأطفال يسبحون وهو لا يستطيع كان يتألم ويحبس في نفسه، ومنذ ذلك الوقت إلى الآن وهو لا يعرف سبب منعه من السباحة في البحر، رغم إتقانه لذلك، وحين كبر تعلم صيد السمك وكان ماهراً بذلك وحين يأتي رمضان، يتجمع الأولاد الذين لا يريدون الصوم للإفطار بعيداً عن عيون أهلهم على البحر ويقومون بشراء علب السردين والجبن وتبدأ الحفلة بين السفن الراسية على الشاطئ، وقد كان مرزوق أكثر الأولاد حرصاً على الصوم ولكن أهله دائماً ما يتهمونه بأنه فاطر لأنه لا يكثر النوم والتمثيل بأنه جائع وعطشان مثل أخوته الكبار، وحين ينشغل بصيد السمك ويؤذن للمغرب في رمضان كان يسرع للبيت وهو صائم، وبعد دخوله يتهمه الجميع بأنه فاطر وكانوا يقولون له، كلب رمضان، فقرر مرزوق أن يكون عضواً في جماعة الكلاب الفاطرة على البحر، حتى يصبح لاتهامات أهله معنى، وحين دخل مرحلة المراهقة، كانت اللقاءات الغرامية على شاطئ البحر، وحين تزوج استأجر شقة على البحر، وها

هـو الآن يـسترجع التـاريخ البحـري الطويـل معـه، وبعـد ساعات، ربما ترافقه نيفرا على هذا الشاطئ، حيث أن ليلى رغم أنها فنانة كما تدعي إلا أنها على اتفاق مع المساء المتأخر، وآخر الليل فقط.

ـ هل أعجبك المنظر؟

التفت مرزوق خلفه وإذا به يرى قارطاً يدخن وهو جالس على حجرة كبيرة، ضحك واقترب من قارط وقال له:

ـ ما هي حكايتك معي يا بو حسن؟

ـ كل خير إن شاء اللّه، ما في حكاية ولا حاجة، سألت عنك في الفندق فقالوا لي خرج قبل قليل، ولأنك تحب الكتابة توقعت أن أراك على البحر، لا جواسيس عليك ولا شيء.

ـ لو كنت أريدك أن تذهب معي لانتظرتك أو تركت لك رسالة في الفندق، لماذا تسأل عني في الفندق أصلاً.

ـ يا مرزوق أولاد الحرام هنا..

ـ أترك عنك هذه النغمة، للمرة الألف أقول لك إنني لست طفلاً، اذهب أرجوك الآن وسوف أراك غداً الساعة الخامسة.

ومد مرزوق يده وأعطاه مبلغاً من المال، أخذه قارط وابتسم وقال غداً الساعة خمسة أكون عندك.

أحس مرزوق بشيء من الحرية، إنه يحب قارطاً لكنه يكثر من الأسئلة والحرص، واختلاف العقلية بينهما يمنع التواصل الفكري بينهما، وقال مرزوق في نفسه لدي يوم كامل من الحرية، وحين اقتربت الشمس من المغيب عاد للفندق للاتصال بنيفرا على رقم الهاتف الذي تركته له ولكنه لم يجدها.

وفي صالة الفندق وبينما يسير مرزوق لأخذ مفتاح غرفته سمع صوتاً نسائياً يناديه باسمه، وجد ليلى وأمها والمترجم رامي، ذهب إليهم وأحس بنظرة إعجاب وابتسامة من الآن ونظرة حقد من رامي فقرر أن يولي اهتمامه إلى ليلى خشية أن تكون عند أمها رغبة التغيير، فجلس قرب ليلى وعيون أمها ورامي تلاحقانه

في حركاته، فقدمته ليلى لهما على أنه مترجمها مرزوق وأنهما يستطيعان أن يأخذا حريتهما، فلديها من يساعدها، فتكلم رامي مع مرزوق بالتركي فقال له مرزوق من آداب المجالس أن لا تتكلم بلغة أخرى أمام من لا يعرفونها، فأحس رامي بحرج واعتذر لذلك ونظرت ليلى له بإعجاب وإكبار، وكان ذلك يسعده. أما نظرة الإعجاب والرغبة عند أمها فكانت تحزنه، قامت بعد ذلك الأم وليلى لغرفتيهما وقد تعلم من قارط أنه يجب أن يجلس في الصالة ينتظرهما حتى ينزلا، وما عليه إلا الانتظار، وحين دخلتا المصعد ثار رامي على مرزوق:

ـ كيف تحرجني بهذا الشكل أنت مترجم غريب الشكل وأول مرة أشوفك.

ـ وما هو الغريب؟

ـ لباسك يا أخي، إنه في غاية الشياكة، وجزمتك ملمعة.

ـ وماذا في ذلك.

ـ كيف يعطفون عليك وأنت هكذا، وكيف يصدقون أن أمك مريضة ومحتاجة إلى دواء أو أي شيء آخر إذا ما قلت لهم ذلك.

ـ أنا لا أريد عطفاً، أحب أن أؤدي عملي وآخذ أجري.

ـ أي أجر، هذه فرصة لا تعوض، اسمع حاول أن تغير ملابسك الغالية هذه وأن ترتدي ملابس بسيطة، وحاول أن تضع بعض الأصباغ على جزمتك هذه، إذا لم نتعاون معاً سوف تضيع الفرصة علينا.

لقد وجد مرزوق الفرصة مناسبة لمعرفة عالم المترجمين، فحاول أن يجعل رامي يشعر بأنه مستعد لكل شيء، فقال له رامي إنه حدث الأم لكي تشتري فندقاً صغيراً هنا، وأنه على استعداد لإدارته لها. وقد عرف مرزوق من قارط أنه لا يحق للأجنبي التملك في تركيا، بعد صدور قرار منذ عشر سنوات، فقال مرزوق ولأنها لا تستطيع أن تتملك، فأخبره أنه أقنعها بأن تقوم بتسجيله باسمه وهو يقوم بعمل توكيل كامل

لها، ولكن المشكلة أن ليلى غير مقتنعة وهي تمانع، وأنه يتوجب على مرزوق إقناع ليلى، حرضه أن يذهب إليها الآن فهي في غرفة ٥٠٢ وأنه إن لم يساعده فسوف يعطيه مبلغاً من المال على أن يخرج من المجموعة ويترك الأم وابنتها له.

قام مرزوق بصمت وأخذ المفتاح ودخل إلى غرفته، وقد ظن رامي أنه ذهب إلى ليلى، أحس مرزوق بقسوة الغدر وسوداوية الجشع وحقارة النصب، فكلم ليلى بالتلفون، وطلبت منه أن يحضر إلى غرفتها. دخل غرفتها فاستقبلته عارية إلا من منشفة لفت وسطها، فقال لها يبدو أنك مشغولة، وسوف آتي لك بعد ساعة.

ـ أنا لست مشغولة، أردت أن آخذ حماماً فقط، وحتى تصدق، هذه جلسة.

حين جلست ليلى قبالته لم تستطع المنشفة أن تستر كل شيء، فهناك منطقة مظلمة بين ساقيها، لو أمكن لقليل من النور أن يدخل لوشى عن أشياء تخفيها تلك الظلمة، إنها مشغولة بربط شعرها وكأن هذا الذي

أمامها ليس رجلاً، هل تعتقد ليلى أن الرجل حين يعمل عند المرأة يفقد رجولته؟ هل كان هذا إحساسها مع هذا الرجل حين رأته أول مرة وشبهت عليه أحداً، هو نفس الإحساس حين قال إنه مترجم ووافقت أن يعمل لخدمتها؟ هل يفقد الرجل فحولته تحت ضغط رغيف الخبز؟ لقد كانوا في الصين أيام الإمبراطور، يخصون الرجال الذين يعملون في القصر عند الإمبراطور، وكان الناس يتقاتلون من أجل أن يأخذوا أبناءهم، حتى وإن خصوهم وذلك لأنهم سوف يتنعمون بالأكل الذي لا يحصل عليه من هم خارج القصر، يبدو أن ليلى تعتقد أن كل من يعمل مترجماً يكون مخصياً، وأنها وبلا مقدمات لا تخشى على نفسها منه، وربما من غيره أيضاً، وحين أحست أنه ينظر إليها باستفهام وليس برغبة سألته:

ـ ماذا كنت تريد أن تقول؟

ـ رامي هذا نصاب.

ـ هو أيضاً قال عنك كذلك حين رآك أول مرة.

ـ ولكنه لا يعرفني.

ـ بمجرد أن قلت له إنني وجدت مترجماً قال لي احذري منه، ربما يكون نصاباً.

ـ ولكنه طلب مني أن أقنعك حتى توافقي مع أمك على شراء الفندق له، وإن لم أفعل فسوف يعرض علي مبلغاً من المال لأبتعد ويتولى المهمة هو بنفسه.

ـ اسمع يا مرزوق، أموال أمي لا أحب أن أتدخل فيها، وهي ليست طفلة ولكنني غير مقتنعة فقط بموضوع الفندق.

ـ ولكنها أمك وما يضرها يضرك أعتقد.

ـ أمي عنيدة، وهي حرة تشتري فندقاً، تشتري مطاراً، أنا غير مسؤولة عنها، وقد قلت رأيي حين سألتني ولكنني لا أملك أكثر من ذلك، ولا أريد زعلها.

استأذنت ليلى من مرزوق لدخول الحمام وتركت عنده دفتر رسم كبيراً عليه مجموعة من الرسومات بالقلم الرصاص، وكانت أغلب الرسومات لنساء

عاريات. وطلبت منه أن يبدي رأيه فيها بعد أن تنتهي من حمامها ، وبعد أن تصفحها جميعاً على صوت الماء في الداخل ، وأحس أنه على بعد خطوات هناك جسد حقيقي، فماذا يمكن أن تقدم هذه الرسومات، فكتب على الصفحة الأولى بالدفتر:

تركت لي جسداً من ورقٍ حيناً

وغابتْ بالجسدْ

ذاك من يتقد الحرفُ على صُرَّته

إن جاء..

ناداه مددْ

وأنا أسمع صوت الماءِ

كم أحسد هذا الماء يا ليلى

وغيري ما حسدْ

وأنا أشتاق أن يصرعني الماءُ

وإن كان لهيباً أو برَدْ

جمرةُ الصدر على صوت خرير الماءِ

راحت تتقدْ

فاطفئيها واجعليها كالرمادْ

أينعت كل حقول القمح في صدركِ يا ليلى

وقد آن الحصادْ

وترك الدفتر مفتوحاً ومسنداً على وسادة السرير وغادر، وبعد فترة قصيرة من مغادرته الغرفة، نادت عليه أن يشغل المسجلة، ويعيد الشريط الذي بها إلى أوله، ولكنها لم تسمع منه رداً ولم تسمع المسجلة فكررت ذلك ولم يتغير شيء، فخرجت عارية مبللة بالماء، وكأنها متعمدة ذلك، وقالت ألم تسمعني أنا.. ولكنها لم تجد أحداً وكان في مخيلتها أن تكون مفاجأتها له مفرحة، وقبل أن تعود إلى الحمام لمحت الدفتر المسند على الوسادة، تناولته وقرأت الكلمات التي كتبها مرزوق، انتابتها حالة من الابتهاج لأن من يعمل معها مترجم فنان، وحالة من الاكتئاب لأنه خرج بخيبة أمل، وبين الابتهاج والاكتئاب كانت عيونها تقول إنها كانت تريد ذلك ولكن لم يحن الوقت بعد، وحاولت أن تلغي

اكتئابها حين تذكرت أنا قالت له سأراك في المساء المتأخر. وقررت أن تنهي حمامها وتستعد للمساء ما دام الليل بأوله.

في هذه الأثناء رن هاتف الغرفة حملته مسرعة، وكان المتصل رامي يسأل عن مرزوق، فقالت له لقد خرج قبل قليل، فأخبرها أنه لم يره منذ صعد للغرفة، فأخبرته أن يوقفه إذا رآه لأنها تريده.

كان مرزوق في هذه اللحظة في الغرفة ٥٠٩ يقوم بالاتصال بنيفرا، ولكن لا جواب لمحاولاته، وكان يحدث نفسه إما أن أكون أحب نيفرا وأخلص لها أو أكون بلا عواطف وكل ما عندي من مشاعر هي رغبات، فخرج إلى شرفة الغرفة يمتع ناظريه بمنظر البحر، فرأى رجلاً يحييه من الرصيف الثاني للشارع المقابل للفندق، ملامحه لم تكن واضحة والتحية لا يعرف لمن موجهة بالضبط، ولكن القميص الذي يشبه الكلمات المتقاطعة، ولكن باللونين الأحمر والأزرق يعرفه تماماً. إن هذا القميص صنعوا منه عينة واحدة للتجربة فقط، ولم تكن مرغوبة، فكانت من نصيب

بـو حـسـن قـارط، فأشـار لـه مـرزوق بـأن ينتظـره وهـو يـضحك، وقـال في نفسه يبـدو أنـني صـيد ثمـين يخـاف قـارط ضـياعه. نـزل مـرزوق مـسرعاً، وتعمـد أن لا يـراه رامـي الـذي مـا أن يـرى مـرآة حتـى يتوقـف ليتأكـد مـن نعومـة وجهـه وأناقتـه وملابسـه، وكأنـه خطيـب بانتظـار دخول خطيبته التي سوف تقول رأيها فيه.

وصل مرزوق لقارط الذي قابله معتذراً:

ـ لم أشـأ إزعاجـك ولكـنني أحببـت أن أسـلم عليـك حين رأيتك

ـ يقولون يا بو حسن، كثر السلام يقلل المعرفة

ـ هذا كلام غير مضبوط

ـ قل لي يا بو حسن لماذا لم تذهب؟

ــ يـا ابـني ويـن راح أروح، كـل أولادي مـشغولون بحياتهم ونساؤهم لا يحببنني.

ـ أين تنام هذه الليلة إذن؟

ـ في فندق أخي.

مـد مـرزوق يـده وأعطـاه مبلغـاً مـن المـال وقـال لـه أسـكن بهذا المبلغ في أي مكـان تريـد طـوال فتـرة بقـائي في اسطنبول.

ـ اللّه يعمـر بيتـك، شـوف لـو كنـت رحـت مـا كنـت حصلت على هذا المبلغ.

ـ ولكنك تزعجني أحياناً، وأخشى أن أزعل منك.

ـ اللّه ما يجيب زعل إن شاء اللّه.

ـ ماذا تقترح يا بو حسن، أين نـذهب؟ هـل نـذهب إلى السينما.

ضـحك بـو حـسن حـين ذكـر الـسينما، وقـال لقـد دخلتها مرة واحدة، أشوف فلم عمـر المختـار مـع زوجـتي، وبينمـا نحـن في الـسينما اكتـشفت أن زوجـتي مـن غـير جزمة، وحين سـألتها عن الجزمـة قالـت لقـد خلعتهـا علـى البـاب بعـد أن شـاهدت الـسجاد، وخـشيت أن يتـسخ، فنهـضنا إلى البـاب ولـم نجـدها، ولا شـاهدنا الفـيلم، واخترب طلعتنا، ومن يومها لم أدخل سينما.

أحس مرزوق بعد أن ضحك أن السهرة مع قارط في مكان مغلق ستكون اختياراً خاطئاً، فطلب منه أن يذهبا إلى مكان عام غير مقهى العشاق ذاك ويكفي ما تم لهما فيه، فاقترح قارط مدينة الملاهي، حيث كان يسكن قديماً وأردف وأنت تعرف بمن يسكنون هناك، فقال مرزوق:

- وهل يتوجب علي أن أعرف شيئاً عن أناس لمجرد أنهم يسكنون قرب مدينة الملاهي.

- أنت مثقف وكيف لا تعرف ذلك.

- أفدني أنت يا بو حسن.

- يا ابني في كل المدن العريقة تكون الملاهي في المناطق الشعبية البائسة، فلا تقام مدينة الملاهي إلا عند الطبقة الكادحة، التي لا يمكن لها أن تعترض على الإزعاج، والتي يشغل أبناؤها الملاهي لأبناء الذوات.

- تحليل غريب ولكنه منطقي.

- طبعاً، هل يقبل باعتقادك سكان المناطق الراقية أن تقام مدينة للألعاب عندهم؟

ـ هذا يعتمد على قرار البلدية.

ـ ومن الذي يصدر كل قرارات البلدية غيرهم، ومن الذي يجعل الامتيازات بالشوارع والكهرباء والمجاري لهم غيرهم.

ـ لا يمكن التعميم في هذه المسألة.

ـ أنا قلت في كل المدن العريقة، حتى الغرب الذي قلنا إن لديه قوانين جميلة للإنسان، لا يمكن أن تستثنيه من طريقة التفكير الأحادية هذه.

وجد مرزوق أن اقتراح الملاهي قد يدخله في حوارات لم يكن مستعداً لها، وليست المكان المناسب لتغيير جوه النفسي بعد أن تلقى صدمتين من ليلى ونيفرا، ورسالة هدى التي ما زالت عالقة في ذهنه، فاقترح قارط سهرة في أحد الفنادق، فلم يجد مرزوق مانعاً في ذلك، كان الاثنان في تلك اللحظة يقفان عند مطعم ملك الدجاج تحت شقة قارط التي وهبها ولده يوسف لتلك الفتاة، وحين ركبا سيارة الأجرة، أشار مرزوق إلى الشقة التي أضيئت أنوارها في تلك اللحظة، وقال لقارط:

ـ لقد أنيرت الشقة، لماذا لا نذهب إلى تلك الفتاة ونكلمها، ربما استمعت لك، فالوقت ما زال مبكراً، إنها الساعة التاسعة.

ـ أرجوك يا مرزوق ابتعد عنها فأنا أخاف عليك منها.

وبعد لحظة صمت حيث بدأت سيارة الأجرة بالانطلاق إلى الملهى الليلي تنهد قارط وقال:

ـ إن حزني على الشقة لا يقل حزناً على كيس رمل كنت قد أحضرته معي من مزرعة بيتنا، كانت لدينا مزرعة صغيرة، وفي زاوية منها، تعلمت الزرع والقلع، وكان إنتاج تلك الزاوية يسمى باسمي، وحين قررنا الرحيل أخذت كيساً من رمل تلك الزاوية، حيث أنني لم أكن أعتقد بأنه يمكنني العودة إلى هناك ثانية، وقد وضعت ذلك الرمل في صفيحة زرعتها بالورد وكنت أنقلها معي حيثما انتقلنا.

ـ مثلما أخذ شاه إيران صناديق من الرمل وقالوا عنها أنها صناديق ذهب، وكذلك ماركوس حين هرب من الفلبين، أنت تقلد بذلك الخاسرين يا بو حسن.

ـ أنا لست كهؤلاء، لقد حملت رملاً تعلمت منه الزراعة التي لا أتقن غيرها.

ـ والإرشاد السياحي ألا تتقنه؟

ـ لو كنت أتقنه مثل إتقاني للزراعة والحصاد لما كنت تزعل مني بين الوقت والآخر.

ـ إنك تحمل مني

ـ حاشى لله، ولكنها الحقيقة، أنا لا أتقن الدبلوماسية، أنا فلاح دفش تعلم أول حياته الضرب، نعم ضرب الأرض بالفأس وتعلم بعد ذلك القطع، أقصد الحصاد أو القلع، كيف يكون الضرب والقطع والقلع أشياء رقيقة وتحتمل الدبلوماسية محاورة لها.

ـ ولكنها أساس وأصل، وبدونهما لا يستطيع الإنسان الرقيق أن يعيش.

ـ هذا كلام ابتدعه المثقفون البرجوازيون ليخففوا عن الكادحين. وهناك أشياء كثيرة مثل القناعة كنز لا يفنى، وغيرها، وحين يتطاول الكادحون قالوا لهم بحزم، مد رجولك إلى حد لحافك.

ـ أنت بحاجة إلى السهرة أكثر مني يا بو حسن.

وصلت في هذه الأثناء السيارة إلى ملهى ليلي، أول ما يستقبلك منه رائحة الخمر الممزوج بالموسيقى، وابتسامة رجل أتقن اختيار ملابسه على الباب، مرحباً بك وكأنه يدعوك للدخول على حسابه الشخصي، أو كأن السهرة مجانية، ولكنك حين تلمح الرجال الواقفين على جانبي الباب، وقد أخفت البدلة السوداء كمية العضلات والتي غالباً ما تعبوا بتربيتها، فكانت سبباً لحصولهم على الوظيفة، فكل الوظائف في الأرض حين يتقدم إليها الرجل يذهب إليها بكامل أناقته إلا وظيفة حراس الملاهي الليلية، فإنه يجب أن يذهب بلباس شبه عار من الأعلى حتى تظهر مقوماته العضلية، حين تلمح هؤلاء تعرف أن الحساب لا بد وأن يكون غير منطقي، ولكنك أمام منطق عضلاتك مع عضلاتهم، تجدها

منطقية تماماً، فتدفع عن طيب خاطر وتلعن بعد ذلك من تشاء.

قال قارط لمرزوق بعد دخولهما، وبعد أن استقبلتهما الابتسامات المتطايرة من كل جهة، سوف ترى نساء هنا، لا تراهن في النهار في الشوارع أو الأماكن العامة، إن النهار لهن للنوم وحياتهن لليل، وتبسم مرزوق فقد كان يخفي تساؤلاً حول بو حسن قارط، إن ملامحه وحديثه عن أمور الحياة يعطي انطباعاً أنه لم يعد يذكر أن هناك جنساً بين الرجل والمرأة، فقد مر زمن طويل على آخر عهده به، وربما لم يعد يذكر من السلوك البشري إلا الأكل والنوم والعمل، وبعض العلاقات الاجتماعية، لأنها في هذه السن ضرورية، أما العلاقات التي لا يتقنها غير الشباب، فقد انقرضت لعدم الاستعمال، فما الذي يجعل قارطاً فرحاً إلى هذه الدرجة؟ هل تذكر شيئاً ما؟

إن تجربة مرزوق مع تلك النوعية من السهرات لا بأس بها، فهؤلاء الناس حريصون على النصب والاحتيال أكثر من أي شيء آخر تشرب نوعية معينة من الشراب

الرخيص ولكن سعره أضعاف كل المشروبات وعليك بالدفع، لهذا حرص على أن لا يجلس معهم أحد ومعرفة كل شيء قبل طلبه، وقد أوكل هذه المهمة لقارط، والذي يتقنها تماماً، بل إنه في نظر مرزوق لا يتقن غيرها، فبمجرد أن طلب منه مرزوق أن يمنع عنه النصابين من الجنسين، حتى بدأ صوت قارط يعلو في الملهى مع اقتراب أي شخص من طاولتهم، وكأنه كلب حراسة مدرب.

لقد كان في الملهى مجموعة من الشباب العربي، يحاولون أن ينقلوا التقاليد التي اتبعوها في بعض الملاهي العربية، حيث يقومون بتحية بعضهم البعض وتحية الدول والشعوب كذلك لم ينسوها حيث أنها دائماً ما تكون منسية، وكذلك يقومون بربط الأوراق النقدية على شكل قلادة ويلبسونها للراقصة، وفي هذه الفوضى الوطنية قام قارط وحيا العرب جميعاً وحيا أهالي أنطاكيا. ولأنه حيا دون أن يدفع شيئاً لم يجد الدعم الموسيقي اللازم والذي يليق بمكانة من حياهم عنده، فعاد منكسراً وكأنه يتمنى أن يكون غنياً ليعيد

كرامة أنطاكيا، حتى وإن كانت على خصر راقصة، هكذا تصبح الوطنية في الملاهي الليلية، تحية وموسيقى وراقصة وتحيا الشعوب العربية.

اقتربت الساعة من الثالثة صباحاً، وقبل أكثر من ثلاث ساعات كان قارط نائماً ويقظاً، فقد داهمه النعاس ولكنها المكابرة والواجب يمنعانه، وما أن طلب مرزوق المغادرة حتى هرول لإيقاف سيارة أجرة لهما، حيث أكمل نومه في السيارة. وبعد أن نزل مرزوق أحس بالقلق على قارط النائم، وسأله أن ينزل معه في الفندق ولكن قارطاً قال بكبرياء أنا أصحى منك ومن سائق السيارة، أراك صباحاً في الغد،فقاطعه مرزوق ليس قبل العصر يا بو حسن نحن الآن في الصباح.

دخل مرزوق غرفته متعباً وألقى ملابسه في زاوية الغرفة واستلقى على السرير وأمسك بالهاتف واتصل بنيفرا وبعد أن رن الهاتف لمدة طويلة سمع صوتها نائماً قال لها:

ـ أنا آسف أكلمك غداً.

ـ لحظة مرزوق؟

ـ نعم.

ـ أين أنت، لقد انتظرتك طوال الليل؟

ـ اتصلت أكثر من مرة.

ـ كنت عند والدتي أسلم عليها وأستأذنهم وجئت لانتظارك.

ـ الوقت متأخر سأراك غداً.

ـ أرجوك الآن أنا بانتظارك.

ـ ولكنني متعب سأراك غداً عصراً.

ـ كما تريد.

ـ إلى اللقاء.

ـ مع السلامة.

أطفأ مرزوق أضواء الغرفة فسمع أصواتاً وهمهمة عربية في الشارع فأسرع إلى الشرفة ليرى أم ليلى ورامي بحالة من الضحك والسكر السافر وهما يدخلان بوابة الفندق، فأحس بضيق لذلك المنظر، فاتصل بليلى

ـ صباح الخير يا ليلى.

ـ مرزوق.

ـ أين أنت، ماذا فعلت بي، حرام عليك.

ـ فعلت ماذا؟

ـ أين أنت الآن؟

ـ في البيت.

ـ أحضر حالاً أرجوك.

ـ وأين أمك؟

ـ لقد ذهبت تسهر، ولا أعرف إن عادت أم لا.

ـ وأنت؟

ـ كنت بانتظارك يا مجرم.

ـ هل كانت لوحدها؟

ـ ماذا بك يا مرزوق حاول أن تفهم أن أمي حرة في تصرفاتها، لا أنا ولا أنت أوصياء عليها، اتركها تعيش حياتها، واتركنا نعيش يا شاعر.

ـ أنا لست شاعراً.

ـ والشعر الذي كتبته؟

ـ هو من محفوظاتي.

ـ وهل كانت للشاعر ذاك ليلى أيضاً؟

ـ ليلى لم تغب عن الشعر العربي ولا سلمى ولا هند إنه رمز لا أكثر.

ـ وكانت تستحم أيضاً، يا ليتك قربي لأقطعك على المكابرة هذه.

ـ الحمد لله أنني بعيد.

ـ ولكن لن تكون بعد قليل، أنا آمرك وأرجوك وأطلب منك وأتوسل إليك، اختر الكلمة التي ترضيك وتعال، إنني كما تركتني يا غبي، أنا صرت مجنونة.

ـ لقد تركتك في الحمام، هل لا تزالين هناك؟

ـ تركتني عارية وأنا مازلت كذلك منذ أن قرأت ما كتبت وأحببت أن تراني كما كنت تريد.

ـ أنت لست عارية.

ـ صدقني أنا مجنونة، لقد رسمت نفسي بثلاث لوحات تعال وشاهدها، سوف تكتب بها أشياء كثيرة.

ـ ليلى أنا أحب الجنون فإن كنت مجنونة سأراك بعد دقيقة واحدة، احملي دفترك ومفتاح غرفتك وتعالي إلى غرفة ٥٠٩ ستجدينني فيها، وإن لم تحضري خلال دقيقة لن أفتح الباب.

ـ لحظة أنت هنا في نفس الدور معنا.

ـ نعم.

ـ وهل تريدني أن أمشي بالممر عارية؟

ـ هذا هو الجنون، سأفتح الباب وأغلقه بعد دقيقة.

ـ ولكن....

أغلق مرزوق الهاتف وفتح باب الغرفة وبدأ يراقب ساعته، وقبل أن تنتهي الدقيقة، سمع صوت باب يفتح ويغلق وصوت جري في الممر الآخر وسقوط مفتاح على الأرض وضحك وها هي أمامه تدفعه للداخل وهي تضحك.

ـ الظاهر أنك أجن مني يا مرزوق.

أغلقت الباب وما زالت تضحك وقد نسيت أنها عارية تماماً، ألقت الدفتر على الكرسي واحتضنته قائلة:

ـ أنا لم أكن أؤمن بالسحر ولكنني أشعر أنك عملت لي عملاً، أشعر يا مرزوق أنني لم أعرف الحب والرغبة كما عرفتها اليوم، إن كلماتك مشت بأعصابي وشراييني حتى أنني أشعر أن اللّه خلقك حتى أحبك، ليس لك أهمية بهذه الدنيا كأهمية حبي إليك.

ـ بدأت تبكي على صدره، ومرزوق لا يعرف ماذا يقول، لقد بدأ معرفته بمزاح وانتحل شخصية مترجم تركي بلحظة لم يكن يعرف مصيرها، وكتب تلك الكلمات وهو في حالة استنكار لتصرفاتها، حين أحس أنها ألغت رجولته ورغباته عندما تعرت أمامه، وذلك لأنه يعمل عندها كمترجم، وحين اتصل بها قبل قليل لم يكن يأمل أكثر من أن تنتبه لأمها ولتصرفاتها، وها هي بين ذراعيه عارية تبكي من فرط حبها، وهو يعلم أنها لو أرادت رجلاً كرامي لوجدت العشرات، حيث أن أمها التي لا تملك من الأنوثة دليلاً غير كلمة أنثى في شهادة ميلادها لديها شاب وسيم، فكيف بها وهي الفنانة الشابة الجميلة، حاول أن يفتح معها موضوع أمها، ولكنها لا تعطيه الفرصة من شدة

احتضانها له، سار معها ببطء وهما متلاصقان حيث أطفأ الأنوار ودنا إلى السرير فنامت على ذراعيه، وما أن لامس رأسه الوسادة حتى طافت بباله كل هذه الأحداث كالأشباح، وداهمه النعاس فنام حذراً أن تأتيه هدى بشكل آخر من خلال ليلى، إن التي تقمصت فتاة تركية لا تعجزها ليلى العربية.

سمع مرزوق ظهراً حركة من حوله، فانتبه لكي يجد ليلى وقد ارتدت أحد قمصانه وتقوم برسمه وهو نائم، فابتسم وقال لها هل انتهت اللوحة فقالت إنها اللوحة الثانية يا مرزوق التركي، إن نبرتها كانت تخفي شيئاً، فالتفت جانباً حيث شنطة ملابسه الكبيرة والتي لا يمكن أن تكون إلا لرجل مسافر، وسكنه في هذا الفندق ليس له إلا معنى إنه ليس بحاجة إلى المال عن طريق الترجمة.

- من أنت يا مرزوق؟

- عربي.

- من أي بلد أقصد؟

ـ أنا ما جئت يا ليلى هنا إلا لكي أنسى بعض انتمائي، فاتركيني فأنا في حالة نسيان.

ـ أخشى عليك أن تتعود عليه.

ـ النسيان هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن التعود عليه، فالإنسان العربي يعيش حالة من الضياع، قد لا يشبهها ضياع آخر، وإن كانت ليست جديدة في حياة العربي منذ أن عرف الذاكرة ووصلتنا أخباره.

ألقى مرزوق عليها جريدة عربية وقال اقرئي هذه القصيدة، وقام إلى الحمام، تناولت ليلى الجريدة وقرأت:

أسلمتُ أوروبا لأوروبا

وقاومتُ ارتدادَ الحزنِ في شفتيّ

أطلقتُ السؤالْ

لأخلصَ التاريخَ مما ألصقوا في ثوبه

ـ مما يعافُ — من البطولة والنضالْ

وأبرئ النسيانَ لو ينسى

واتهمَ الخيالْ

يوماً إذا اتكأ الرجالْ

حيناً عليه وعاش فيه الجهلُ

والورّاقُ يغزل ما يشاء من الحبالْ

ويبدل التوراةَ بالإنجيلِ

والإنجيلَ بالتوراةِ

أو يلغي المحالْ

أنا ما عرفتُ سوى القليل

فكيف أقنعُ باحتلال الرأي منزلةً

وما زال الجدالْ

منذ السقيفة يمتطي جهلاً

ويمتحن الرجالْ

أنا ما عرفت سواكِ دارْ

يا أمةً صنعوكِ من رحلوا

ولم نحفظْ صنيعهمُ

ووحّدنا انحدارْ

من أول الثوراتِ يلبسنا انحناء الفكرِ

قفازاً وتابوتاً وتشريداً ونارْ

حيناً ويلبسنا اعتقالْ

لم نبلغ الإقدامَ منزلةً

ومازال القرارْ

ينأى..

وما زال ارتدادُ الفكرِ يهوي

والرجالْ

تحيا وتكتبُ بالفضيلةِ

أو تحدثنا عن القربى

وعن فضلِ الجوارْ

لا أدري هل ظلتْ لنا قربى

إذا كانت مفاتيحُ السماءْ

تُعطى وتمنحُ باقتدارْ

من يرتدي في الليلِ ألوان المعاصي

نخبَ ثوارِ الجزائرِ والبطولةِ

والدمارْ..

في ثوبنا العربي

يفتتحُ الكؤوسَ بألف نخبٍ

ثم يخشعُ إذ يسبحُ في النهارْ

من أول الثوراتِ

مات الرأيُ وانتفختْ كروشُ الفكرِ

واختنق الحوارْ

ألقت ليلى القصيدة جانباً وهي في حالة ذهول، لماذا طلب منها أن تقرأ هذه القصيدة، التي لم يصل لها منها شيء، وبعد لحظة تفكير وهي تسمع صوت الماء تذكرت تلك القصيدة التي وصلتها تماماً، وأحست أن الدور قد انقلب فألقت قميصه جانباً ودخلت عليه الحمام، أحس مرزوق بدخولها ولكنه لم يكن يتوقع أن تداهمه تحت الدوش، وهي تقول كانت القصيدة

رائعة، ومرزوق في حالة ذهول كيف تكون قصيدة بهذا الحزن وتكون ردة فعلها بهذه الطريقة، هل هو الهروب من الحزن بالالتجاء إلى الفوضى والجنون، إن كلماتها مثيرة أكثر من أي جسد، ومرزوق الذي حاول أن يدخلها في عالم الحزن، ها هو يهرب معها، قد تكون الأحزان غير محتملة، فينتحر البعض من شدة الحزن ويلجأ البعض إلى السكر، ويلجأ البعض إلى الزهد، ويلجأ البعض إلى عناق وفوضى ليلى تحت الماء، إن المثقف دائماً ما يحاول أن يبرر سقوطه، مرة باسم الهروب ومرة بالصمت لالتقاط النفس، ومرة هذا شيء وذاك شيء، وها هو مرزوق لا يشكل أي مثالية في حياته، فقبل السفر احتفظ بصورة من تنتظره في محفظته وقد كان حريصاً على أن يراها كل يوم، وحين تعرف على نيفرا نسي تلك العادة الجميلة وأحبها، وحين طلبت رؤيته اعتذر بحجة التعب، وبعد دقائق كان على الباب بانتظار امرأة عارية مجنونة تأتيه خلال دقيقة، وفي الصباح يقرأ قصيدة حزينة، ويحاول أن تصيب عدوى الحزن ليلى الفنانة، فربما غيرت من

أسلوبها من رسم العاريات إلى رسم شيء أهم وأعمق، وبينما هو بانتظار الخروج ليسمع رأيها ويبدأ معها حواراً جاداً، تداهمه هي بفوضى أكثر جدية، فيتأجل المبدأ أمام منطقية المبادئ الأخرى، ويبقى المبدأ دائماً أسير الأولويات.

بعد خروج ليلى إلى غرفتها، ارتدى مرزوق ملابسه وأحس برغبة شديدة لرؤية الصورة التي بمحفظته، وقبل أن يخرج من الغرفة تذكر أنه قد نسي محفظته والصورة في فندق قرية كوك شدرة، وتذكر رجل المهمات الصعبة بو حسن قارط، لا بد أن يحوم حول الفندق كعادته، ولا بد من الذهاب بأسرع وقت إلى هناك، فكل العملة الأجنبية هناك والصورة هناك، إنها الأهم في نظره في تلك اللحظة.

نزل إلى بهو الفندق فلم يجد قارطاً، فخرج إلى الشارع وهو على قناعة تامة بأنه سيجده، ولكنه صدم أيضاً، إن هذه أول مرة يشعر فيها بأهمية قارط فلم يجده، وحين كان يجتهد بالهروب منه يجده كالليل باسماً وكعادته "رايح وين يا هراب"، تذكر مرزوق أنه

شدد عليه أن لا يأتي قبل العصر، فقرر السير قليلاً قبل الغداء وحين وصل إلى نهاية الشارع حيث مطعم ملك الدجاج الشهير، خطرت له فكرة أن يشتري غداء ويذهب لمفاجأة نيفرا وتم له ذلك فأوقف سيارة أجرة عند المطعم وأعطاه عنوان نيفرا، ولكنه فوجئ حين طلب منه سائق سيارة الأجرة أن يخرج من السيارة، وقد تبع خروجه سيل من الكلمات. اعتقد مرزوق أنها شتائم، فحاول أن يجد مبرراً لسلوكه فلم يجد، فأوقف سيارة أخرى، وقبل أن يدخل عرض عليه العنوان، فرمقه سائق السيارة بغضب ومشى، فأحس مرزوق أن هناك خللاً في العنوان، وخطر على باله أن نيفرا كتبت له شتيمة باللغة التركية، يغضب كل من يقرؤها، فعاد إلى صاحب المطعم الذي خلفه حيث أنه يعرف بعض الكلمات في اللغة العربية والإنجليزية، فعرض عليه العنوان، فأشار صاحب المطعم إلى العمارة التي يقف تحتها مرزوق، فعرف سبب غضب سائق السيارة، وأدرك أن نيفرا هي تلك الفتاة المستهترة كما قال عنها قارط، وهي التي سرقت مع والدها شقة يوسف وأنه

سوف يدخل تلك الشقة، وسيقترب من المأساة بشكل أعمق. وصعد إليها وهو في حالة ذهول من توالي الأحداث، بعد ثوان كان أمام باب الشقة وبعد ثوان كانت نيفرا أمامه بوجهها الأبيض وبغابات عينيها الخضراء وبارتعاشها المعهود، فكأنها تقف على زلزال صغير بحجم قدميها، وضع مرزوق كيس الغداء عند المدخل وراح في عناق صامت يحمل اعتذارات كثيرة ولكنه لم يبدها لها، شرح مرزوق قصته مع العنوان لنيفرا فضحكت وبعد استفسارات واستجوابات طلبت منه أن يسكن معها وأن يترك الفندق ووعدها بالتفكير بذلك وكانت تدري أنها قادرة على إقناعه وربما يمتعها أن تجد منه ممانعة في البداية ثم القبول، إن طبيعة حب الانتصار تبدو في كل تصرفاتها العامة، فهي لم تأكل معه الدجاج لأنه لم يكن اختيارها هي، إن حب التملك عندها تفرضه بطريقة مثيرة وجميلة فلا يشعر الإنسان أنها تفرض رأيها أو شيئاً كهذا.

بعد الغداء الذي لم تشارك فيه نيفرا بجدية، كما يشارك فيه قارط أو جدتها، سألته عن عمها بو حسن،

وهل قال له شيئاً معيناً، في هذه اللحظة تفجرت ذاكرة مرزوق عن فلم طويل اسمه يوسف كتب شقته إلى فتاة مستهترة بعد خطة أحكمها والدها، استلقى مرزوق على المقعد، وراح بالتفكير، كيف تكون الصدف بهذا التخطيط العجيب، أخ يأخذ ثمن البستان من أجل بدلة عسكرية وتتحسن أوضاعه المالية فلا يذكر أخاه الأكبر، ويلاحقه ليسرق منه شقة عن طريق ابنته وهو الذي يملك فنادق ومزارع وبيوتاً، ونيفرا هذه هل تحمل من أطباع الأزميرية شيئاً أم أنها كما تبدو ملاك جميل وليست طرفاً في لعبة الصراع والمال والجشع، حاول أن يفتح الموضوع معها ولكنه تذكر طلبها الدائم منه بالابتعاد عن عمها، إنها تضمر شيئاً إذن، إنها تشعر بالذنب ولكنها غير مستعدة للعودة إلى الحق، ولا بد من ولا بد...

أجال مرزوق نظره في الشقة وأبدى إعجابه بها، وتذكر الصفيحة والرمل وقارطاً فسأل نيفرا عن الصفيحة بطريقة خبيثة.

- إن هذه الصفيحة لا تتماشى مع ديكور الشقة.

ـ لهذه الصفيحة قصة، إن الرمل الذي بها من مزرعة جدي وعائلتنا تحتفظ به منذ أربعين سنة.

ـ وهل يعني لك ذلك شيئاً؟

ـ كما قلت يا مرزوق إنني أتمنى أن أعود بطفولتي إلى بلدتي وإلى تلك الأيام البريئة.

ـ أنت لا تزالين بريئة يا نيفرا.

ـ معك أنت فقط، هناك شيء فيك جذبني إليك بطريقة سحرية فأشعر بالأمان معك.

ـ ولكن براءتك يا نيفرا أكبر من أن تخافي عليها أنت بريئة وواعية.

تناول مرزوق ورقة وكتب بينما نيفرا انشغلت بتنظيف المكان، ربما أنها تذكرت ميما زوجة مصطفى والتعليقات عليها في تلك الليلة، فأحبت أن تكون مثالية وتركت مرزوقاً يكتب، ولكن طبيعة المرأة دائماً غالبة عليها، فبعد أن انتهت جلست إلى جانبه وهو يكتب وكان من عادته، أنه لا يعرف

الكتابة إذا كان هناك من ينظر في ورقته أو دفتره فتوقف بعد أن كتب:

كنتِ لي بعداً وكنتِ الملتقى

وشباباً رقّ حين ائتلقا

وبراءاتٍ أراها سبحتْ

حين أهديتُ إليها الغرقا

طلبت منه أن يكمل، فلم يخبرها بسبب توقفه، ولم يخبرها أنه يعرف قصة يوسف الذي خدعه والدها، وأنه يكره كل تصرفات والدها مع أخيه بو حسن، فاقترح عليها أن يعود للفندق فاقترحت توصيله بسيارتها، ولكنه فضل السير لأنه يتقن التفكير والتأمل حين يمشي، وهو أشد ما يكون بحاجة إلى التفكير في هذه اللحظة.

اتصلت ليلى بمرزوق فلم تجده فنزلت إلى صالة الاستقبال لترى بو حسن قارط جالساً في زاوية الفندق، فاقتربت منه وسألته:

ـ الأخ من الجزائر؟

ضحك قارط وقال لها إنه من أنطاكيا ويعمل مترجماً لمرزوق، وبدأ يحدثها عن النصابين وعن المترجمين الجدد الشباب وأشياء كثيرة لا يتقن قارط الحديث بسواها، ولكن ليلى تريد مرزوقاً، فسألته عنه، فأفادها بأنه سوف ينزل بعد قليل وحين أخبرته أنه ليس في غرفته، انتفض قارط وخرج إلى الشارع يبحث عنه وعند أول إشارة مرور، فاجأ قارط مرزوقاً.

ـ وين رحت يا هراب؟

ـ بو حسن لقد نسيت محفظتي في كوك شدرة ويجب أن نذهب معاً إلى هناك حالاً.

ـ على طول، هل المبلغ الذي فيها كبير؟

ـ نعم.

ـ ما يضيع شيء، رحمي هذا صديق قديم.

فكر مرزوق باختبار قارط، فقال له:

ـ أنا يا بو حسن تعبان وأحب أن أجلس هنا ، اذهب أنت إلى هناك والرحلة تستغرق ساعتين ذهاباً وعودة بالباخرة السريعة.

ـ يا ابني وين تجلس هنا ، اسطنبول فيها الكثير من النصابين وكيف تترك نقودك مع واحد غريب، يجب أن تذهب بنفسك معي، وفي الباخرة الرخيصة أيضاً لقد أحس مرزوق بحب شديد لقارط، وبندم على سوء معاملته له أحياناً.

دخل الاثنان الفندق، فذهب مرزوق لتغيير ملابسه ، فلحقته ليلى إلى غرفته ، وأخبرها بسبب استعجاله في الذهاب إلى قرية كوك شدرة ، فطلبت منه مرافقته فرفض، بحجة أنه يوم سفر وأنه سيعود بنفس اليوم، ولا داعي لتعبها ، فأخبرته بأن لديها ألف داع لمرافقته ، وحاول أن يلجأ إلى سمعتها وكلام الناس فالكثير من الناس يحتمي بأشياء غير مقتنع فيها ، فأخبرته أنها حرة في تصرفاتها وأمها تعرف ذلك، وأنه لا يحق لأي إنسان أن يتدخل في حياتها ، ولكن صدمة مرزوق بنيفرا لم

تجعله قادراً على أن يكون لطيفاً مع ليلى، ويخشى أن يعاملها بفظاظة تسيء إليه أخيراً، فقال:

- ليلى أنت فنانة والفنان حساس، حالتي النفسية لا تسمح لي بأن تكوني معي.

- قبل أن أكون فنانة، أنا إنسانة، وحالتك النفسية تجعلني أكثر إلحاحاً على أن أكون بجانبك، اعتبرني صديقك الجزائري.

ضحك مرزوق وضحكت ليلى وقالت له:

ـــ سأحضر بعض الأشياء من غرفتي ونلتقي في الاستقبال بعد عشر دقائق.

كان مرزوق يعرف أن دقيقة المرأة خمس دقائق، وخمس دقائق المرأة نصف ساعة، وعشرة دقائقها ساعة، فنزل مرزوق وسلم مفتاح الغرفة ولم ينتظر، أخذ قارطاً وذهب إلى الميناء وكان قد تبقى خمس دقائق على قيام السفينة السريعة، فوجد بقرار تركه لليلى راحة لضميره لأنها كانت سوف تؤخرهما ثلاث ساعات لركوب سفينة أخرى.



الفصل الخامس

وصل الاثنان إلى مدينة يلوا واستأجرا سيارة إلى قرية كوك شدرة، وفي الطريق وقبل أن يصلا لفحتهما رائحة الصنوبر في الغابات، فتذكر مرزوق نيفرا بأجمل ما يشتهي من تذكر، طريق المئة متر من الفندق لبيتها، وقبلتها الأولى، وحمامات ترمال والساعات الإضافية، وغابات عينيها التي تبارز غابات كوك شدرة، فطلب من قارط أن يناما هذه الليلة في القرية ويعودا في الصباح، فبدأ قارط رحلة عتابه له، إنه أخطأ حين رحل بسرعة من هنا، ولولا أن ملابس مرزوق ظلت في الفندق لجلسا أسبوعاً هنا، ولكن مرزوقاً أحس بأن ليلة واحدة تكفي، ليكفن فيها صورة نيفرا النافرة.

على باب الفندق استقبلهما السيد رحمي صاحب الفندق وأخذهما إلى مكتبه وأخرج من درج المكتب

محفظة مرزوق واعتذر له لعدم معرفته بعنوانه لإعادتها له، فطلب مرزوق من رحمي غرفة له، وتمنى أن تكون مطلة على الغابة، فكان له ما أراد، دخل الاثنان إلى الغرفة وذهب مرزوق إلى الشرفة المطلة على الغابة وبيت جدة نيفرا، فكتب في دفتره الأحمر الصغير الذي لا يفارقه:

هاربٌ منها فجودي يا سنينْ

منك بالنسيان حتى نشتهي

غابةُ الشوق وأحراشُ الحنينْ

أشعلا بي أرقاً لا أشتهي

توقف مرزوق ليتأمل الغابة، فألقى قارط كعادته عقب سيجارته من الشرفة، فأحس مرزوق أن قارطاً له ضلع بحرائق الغابات، إن هذا الرجل تعلم إشعال السيجارة وتعلم تدخينها ولكنه لم يتعلم إطفاءها أبداً، ولا بد له من تعلم ذلك وفي كل مرة يحاول مرزوق ذلك

يفشل حين يرى خطوط وجهه التي تنم عن الخبرة في الحياة، كيف يتقبل من شاب صغير، فيسكت.

إن غروب الشمس المتأخر إلى الساعة التاسعة مساء، يعطي وقتاً أكبر لجمال الطبيعة، فكأن الشمس ذاتها معجبة بالغابة، فنراها لا تغادرها إلا متأخرة، كان مرزوق في صراع مع الوقت، فهو يريد أن يمتع ناظريه لآخر مرة وتصرفات قارط تشغله عن ذلك، فطلب منه أن ينتظره حتى يأخذ حماماً، فأخبره قارط أنه ينتظر في بهو الفندق، وتباهى بأنه يشرب الشاي دون أن يدفع شيئاً، ومهما شرب لا يدفع، إن أخاه يملك الفندق وهو يفرح إذا ما تملك كوباً من الشاي!

بدا على مرزوق الاضطراب، وحاصرته الأسئلة، والإجابات الإنسانية والأنانية، فمرة يجد أن قارطاً مظلوم ويجب أن ينصفه، ومرة يقول هو وأخوه أولى ببعضهما، ومرة يحاول أن يجد العذر لنيفرا من كل ذلك ومرة يلومها، لا بد له من موقف حتى وإن كان الهروب، ولكن هل يمكنه ذلك؟

هــــــاربٌ منـــــها ومـــــن غاباتهـــــا

ومـــــن الحـــــسن الـــــذي فـــــاضَ عليّـــــا

هــــاربٌ مـــــن أمـــــسها ومـــــن غـــــدها

ومـــــن الـــــذكرى ومـــــا تـــــصنع فيّـــــا

وجههـــــا الآســـــرُ مـــــا مـــــرَّ علـــــى

ظُلَـــــمِ الليـــــلِ ومـــــا أشـــــعلَ ضـــــيّا

غـــــارقٌ أقتـــــاتُ صـــــبري هـــــا هنـــــا

فأنـــــا دونـــــك لا أعـــــدلُ شـــــيّا

أنكـــــري دنيـــــاني أو فاســـــتكبري

كـــــل مـــــا تـــــرمين يرتـــــد إليّـــــا

هــــــاربٌ بالـــــسحر مـــــن أورادهـــــا

أقـــــرأ الكـــــفَّ فتبـــــدو بيـــــديّا

لا أنـــــا أدركـــــتُ بـــــردي أو غفـــــتْ

نارهـــــا في الـــــصدرِ يـــــا رحمـــــاك فيّـــــا

أو أنـــــا أبـــــدلت مـــــائي وارتـــــضى

عطـــــشُ القلـــــب ســـــوى عينيـــــك ريّـــــا

هـــــاربٌ منـــــك وألقـــــاني هنـــــا

عاشـــــقٌ للغـــــاب عـــــشقاً أبـــــديّا

وبينما مرزوق يسأل نفسه عن سبب إخفاء اسم الفتاة المستهترة التي ضحكت على ابنه، هل هو الخجل أن تكون تلك الفتاة هي نيفرا ابنة أخيه يوسف، أم أنه حرص على سمعة العائلة من الحديث عنها أمام رجل غريب كمرزوق، رن جرس الهاتف، وأحس أن المتصل هو قارط، فأجاب بتذمر:

ـ ألو نعم.

ـ لماذا فعلتها، هل تريد الهرب مني؟

ـ مـن ليلـى! إنـني أبحـث عـن الهـروب ولكـنني لا أستطيع إدراكه.

ـ متى تأتي؟

ـ غداً، لقد قررت أن أنام هذه الليلة هنا، ولكن كيف حصلت على رقم الهاتف؟

ـ مع السلامة إذن، وسأراك قريباً.

أغلقت ليلى الهاتف، وأحس مرزوق أنها غاضبة، فلم يعر ذلك انتباهاً ونزل إلى بهو الفندق حيث قارط والسيد رحمي في الحديقة، وما أن وصل مرزوق حتى تهلل وجه رحمي، إن مرزوقاً يعرف بالدين وليس مسلماً بالاسم فقط، ويعرف أن الإسلام يبيح تعداد الزوجات وهذا الحديث يطرب له السيد رحمي أكثر من أي حديث آخر، فالإسلام في تركيا شيء والأحوال الشخصية شيء آخر، حيث يتبع نظام الزواج والطلاق القوانين الغربية. وبينما يعيد السيد رحمي أحاديث مملة كان قد تحدث بها سابقاً، بدا مرزوق يتفحص وجهه ووجه قارط الباسم، والعداوة التي كان من الواجب أن تكون

بينهما ، إلا أن الصلح المبطن يعود بالفضل إلى قارط، لأنه الطرف المغلوب على أمره والمظلوم، وحين يعفو المظلوم يكون الصلح دائماً ، فالعفو ليس من ممتلكات الظالم عادة.

دارت الأحاديث القديمة نفسها ، ودائماً ما يعيد الكبار في السن أحاديث ألفوها وتعودوا عليها ، ولا يملونها كالشباب، إن الإنسان حين تموت عنده أشياء، تصحو بالمقابل عنده أشياء أخرى، فحين يموت الجنس عند كبار السن يقوى بالمقابل عندهم الصبر على الرتابة ، فلا يشعرون بالملل الذي هو من سمات الشباب، وبينما قارط ورحمي في حالة اندماج وسرور ومرزوق أشبه ما يكون في حالة كآبة ، سمع الجميع تحية ناعمة ، فإذا به شمس ذلك الرجل الذي يلبس امرأة وكما يحب أن يقال عنه امرأة تلبس رجلاً ، ومعه سلامة الجفالي وعثمان البودر ، فلم يحاول شمس تعريف أحد منهما إلى مرزوق وحيث سبقه الجميع للعناق.

سيطر صمت قصير على الجميع قبل أن يسأل سلامة عن حالة الطقس في اسطنبول وعن سبب عودة

مرزوق، وكأنه يحاول أن يبعد سيل الأسئلة التي لمحها في وجهه وأقلها ماذا يفعل شمس معهما، وتبدد ارتباك سلامة، وحالة الوجوم التي أطبقت على مرزوق حين قال عثمان:

ـ كما قلت لك يا مرزوق حين أريد أن أراك سوف تسعى أنت لي دون أن تدري بذلك.

ـ اسمع يا عثمان لا تحاول إخافتي أو إيهامي بأي شيء من ذلك، فأنا لست من هؤلاء الذين يعيشون بالوساوس، ولا تقل أن هناك رسالة أخرى، فكل ما في الأمر أنني نسيت محفظتي هنا وأتيت لآخذها.

ـ وهل كنت تعتقد أنك ستطير بجناحين أو تأتي على غفلة دون أسباب حين تسعى دون أن تدري، ألم تمر عليك قصة السيد الخضر وموسى حين نسي الحوت فكان سبباً للقائهما.

ـ أنا لست موسى ولست أنت الخضر ومحفظتي ليست الحوت.

ـ لقد وصلتني هذه الرسالة المكتوبة لك.

ـ ومن كتبها؟

ـ أنا.

ـ إذن هي منك أنت؟

ـ لقد أمليت علي.

تناول مرزوق الرسالة، وتبددت رغبته بقراءتها حين لمح شمساً يمسك بيد سلامة تحت الطاولة، فاستأذن ليقرأ الرسالة في بهو الفندق.

سأراك في صنعاء تفتشُ عن عدنْ

لنعيدَ جدولةَ السواعدِ

لا تُعرْ وجهاً توضأ بالمحنْ

والمشتلُ المنسيُ تبهركَ استدارته

وتصرخُ بي "لمن"

"أيكون لي"

فأقول لا

بل ربما

وأقولُ وقتكَ لم يحنْ

فإذا أردتَ رسالة أخرى

فأخبرني إذنْ

فأخذ ورقة صغيرة من موظف الاستقبال وكتب عليها:

أمّلتني بالقاتِ حتى أنني

أقتاتُ من شوقي على بُعد اليمنْ

وأعطى الورقة لعثمان فقرأها وضحك وقال:

ـ سيكون قريباً إن شاء اللّه.

حاول مرزوق أن يكون طبيعياً كما كان سابقاً، ولكن تمادي شمس بحركاته، وسخرية قارط واستنكاره جعلت الجو متوتراً في الجلسة، وحاول سلامة الجفالي أن يوصل شيئاً إلى مرزوق حين قال:

ـ صديقنا شمس يا مرزوق أخبرني أنه من عائلة غنية وأنه سيوفر لي عملاً مناسباً، وهو بذلك يخدم مبادئي وطموحاتي التي أراها تتناقص كل يوم، فأنا لا أملك الجمال أو المال أو الصحة، ومن الواجب علي أن أكون منطقياً بهذا السن، وأتمنى أن تفهم ذلك.

أشـار مـرزوق بيـده إلى سـلامة إلى أنـه لا يحمـل أي ضغينة عليه وأنه حر في حياته وأنه يعتذر إذا ما بدر منه ما يسوءه، كما أنه عرف أن شمساً لن يكون أقل ذكاء من أم ليلى، ومثلما قررت أن تشتري الحب، قرر شمس كذلك بعد أن فشل في أن يجد من يقتنع بأفكاره، وفشل بأن يجد وكيلاً معتمداً في غرفة الثقافة يستورد له تلك الأفكار الغربية، ولكن قارطاً ظل محملقاً بشمس بنظرة لا ينقصها إلا أن يقوم بصفع شمس على البودرة الحمراء الممسكة بمنابت الشعر في خده، وخاف مرزوق من قيام قارط بذلك، ولو شجعه بإشارة أو حركة لفعلها قارط الذي قطع الكلام حين قال باستهجان لشمس محاولاً استفزاز سلامة أيضاً:

ـ أنت رجل!!

ولكن شمساً صاحب الخبرة في تلك المواقف، امتص السؤال بطريقة ذكية، حين أدخل قارطاً والجميع بسرد مقصود عن عدد من الرجال الخونة، والمجرمين، واللصوص، وعدد من النساء القياديات، والعالمات والأديبات، وأوضح لقارط أن كلمة رجل بحد

ذاتها ليست امتيازاً، يناله صاحبها لكونه ولد بها، فالرجولة لها معطياتها والأنوثة كذلك، وهو من حيث المعطيات التي عنده فإنه امرأة، فأحس قارط بأنه أمام آدمي غير طبيعي، وأنه لا يتقن الحديث مثله، ورغم أنه لم يقتنع بكلام شمس إلا أن النظرة المتحفزة لصفعه قد تلاشت.

أحس مرزوق أنه وحيد بينهم، السيد رحمي لا يفهم شيئاً مما يدور، قارط يهيئ أسئلة في نفسه لشمس، سلامة منشغل بأصابع شمس، عثمان البودر يدخن السيجارة كمن يدخن الحشيش فهو يرصد الدخان حتى يتلاشى وعندها يسحب نفساً ثانياً ليراقب الدخان، وهو الذي أراد أن يسترجع في هذا المكان سويعات جميلة قضاها مع نيفرا، وأراد أن يستمتع بمنظر الغابات من حوله، وجد نفسه بين مجموعة غير متناسقة فكل له عالمه ولا تجمعهم إلا طاولة الوسط في الحديقة.

وأثناء بحث مرزوق عن سبب للاستئذان بعد أن غربت الشمس، أطلت عليهم فتاة، أحس بجمالها المتميز، ولم يكن يحس بها بذلك العنف من قبل، إنها

ليلى، ويا لها من مفاجأة جميلة، فقد أضفت عليها كآبة الجلسة سحراً خاصاً، وأحست ليلى بتهلل وجه مرزوق لاستقبالها على غير ما كانت تتوقع، فحيث الجميع على استعجال، وأراد مرزوق أن يبقيها معهم ولكنها دعته إلى داخل الفندق، بعد أن تغيرت ملامحها بعد توقفها بالحديقة، وخاف أن تظن به الظنون حين رأت شمساً معهم، فبادرها في بهو الفندق:

ـ أحب هذا الجنون فيك.

ـ ماذا يفعل عبد العزيز هنا؟

ـ أي عبد العزيز.. تقصدين شمساً؟

ـ نعم، وهل قال لكم أيضاً أن اسمه شمس؟

ـ ومن أين تعرفين مثل هؤلاء؟

ـ إنه أخي الأصغر.

ـ أخوك؟!

ـ نعم أخي.

ـ ولكنه...

ـ أعرف ما تريد أن تقول، وأعرف أن له قدرة عجيبة بتبرير كل شيء يريده ولكنها حياته، وهو حر في تصرفاته.

ـ لقد بدأت أكره الحرية من سوء فهمك لها.

ـ دعنا من ذلك فأنت لا تقتنع إلا بآرائك، رغم أنني أحترمها لأنك حر.

ـ يا لخسارتي فيك يا ليلى.

ـ المهم، هل تعتقد أنه يمكنك الهروب مني.

ـ آه لو تدرين كم أفرحتني مفاجأتك لأعدتها مراراً.

وأمام مكتب الاستقبال أراد مرزوق أن يحجز لها غرفة فضحكت وقالت له:

ـ ما جئت يا مترجمي العزيز حتى أبتعد عنك ولو لدقيقة واحدة، ويجب أن تلغي كل ارتباطاتك كما قلت في السفينة.

حمل مرزوق شنطتها الصغيرة وذهب بها إلى غرفته، ودخل الاثنان مباشرة إلى البلكونة، حيث يودع اللون الأخضر عيون ناظريه مع غروب الشمس، وتناولت ليلى

الدفتر الأحمر وقرأت "هارب منها ومن غاباتها" والتفتت إلى مرزوق بحنان شديد وقالت له، أنت رائع يا مرزوق، ولكنه بدا هادئاً وغير مبال لما تقوله فقال لها:

ـ إن معرفتنا كانت سريعة جداً، والحب الكبير الذي تحدثت عنه في تلك الليلة المجنونة، لا يمكن أن يكون بهذه السرعة يا ليلى، لقد أحببت مترجماً غيري أنا، أحببت مرزوقاً المترجم.

ـ والكاتب أيضاً، لقد أحسست بهذا الشعور أول مرة رأيتك فيها في السفينة.

ـ وكيف ذلك؟

ـ قرأت في عينيك الإعجاب.

ـ تعجبني معرفتك بفك الخط في لغة العيون.

ـ وربما أكثر من الإعجاب، ولكني لا أعرف تماماً كل الأمور.

ـ وتعجبني أيضاً أميتك في بعض الأمور.

ـ تكلمت بإعجاب عن معرفتي وجهلي ولم تتطرق لي.

ـ وهل أنت شيء آخر غير المعرفة والجهل، الإنسان هو ترجمة لمجموعة المعلومات والمعارف التي عنده؟

ـ أنا ليلى تلك التي عذبت قيساً وهام بها حتى جن.

ـ ولكنني لست قيساً.

ـ سنعيد كتابة التاريخ ونجعل ليلى هي المجنونة بحب مرزوق، وأن قيساً لم يكن اسمه هكذا، لقد كان اسمه مرزوقاً، وكتب في التاريخ خطأ.

ـ وقيس؟

ـ هي كنيته.

عانقته، فأحس مرزوق أن ليلى تمتلك مفاتيح النسيان التي يبحث عنها بالهروب، فطلب منها الذهاب للعشاء خارج الفندق، ولكنه حين حاول أن يستعرض المطاعم في القرية، لم يقتحم ذاكرته في تلك اللحظة إلا مطعم حسن بابا ونيفرا والجدة، فقرر البقاء في الفندق.

وجدت أم ليلى ورقة في الاستقبال من ليلى تقول:

"والدتي الحبيبة، أرجو منك أن تعتبريني في إجازة قصيرة، وأنا أعرف أن دعاء الأم مستجاب، فأرجو

دعاءك لي بأن تطول إجازتي، فلا تشغلي بالك بي أنا بخير ولكنه ليس الخير كاملاً كما أرجوه، أو كما أراه بعينيك حين يرافقك رامي، إنني أحسك يا أمي تعيشين في شهر العسل، فلا تجعليني أشعر بالذنب لأنك تتحملين مسؤولية مرافقتي، إنني أمنحك إجازة مني، فامنحيني أنت كذلك إجازة صغيرة وتمنياتي لك ولرامي بأطيب الأمسيات، ما زالت الغرفة محجوزة باسمي، وسأعود قريباً، ابنتك المحبة ليلى".

قرأت أم ليلى الرسالة وضحكت، وأطلعت رامي عليها وقالت له، لقد كبرت ليلى، ورغبة رامي الملحة بأن ينفرد بأم ليلى جعلته يقول لها، إنها كبيرة وعاقلة فلا تخافي عليها، لقد كان سفر ليلى فرصة لرامي الذي أصبح طموحه أكبر مبلغ يأخذه مترجم مقابل عمله، إنه يفكر في الفندق، لقد تحمل احتراق الأعصاب ونفاق المشاعر ما لا يحتمله رجل غيره، فلا بد له من مكافأة كبيرة جزاء تلك النصيحة.

ـ بقيت نيفرا في شقتها تنتظر مرزوقاً، ترفع السماعة للتأكد من وجود الحرارة في الهاتف، ولكن

ساعات انتظارها طالت فقررت الاتصال بالفندق فلم تجد له أثراً، وأصيبت بحالة إحباط شديدة، فهي تخشى إن ذهبت إليه يكون قد اتصل، فلم يحدث أن أحست بالاحتراق والشوق كما هي الآن، فرن جرس الهاتف، وقبل أن يكمل رنته الأولى، كانت نيفرا تجيب عليه بحرارة كبيرة وكأنها تعرف المتحدث:

- ألو..

- حبيبتي نيفرا.

- من؟ جدتي!

- نعم حبيبتي، كيف أنت اليوم؟

- بخير.

- لقد مررت على خالك رحمي وأخبرني أن الشاب العربي مرزوق، الذي دعانا إلى الغداء في..

- أكملي يا جدتي ماذا به؟

يقول أنه ذهب إلى اسطنبول ونسي محفظته في الفندق، وعاد اليوم ليأخذها هو وعمك بو حسن.

- وهل هو موجود في الفندق الآن؟

ـ يقول خالك أنه صاحب ذوق، أراد أن يكافئه، فخجل فقرر أن ينام ليلة في الفندق رغم أنه جاء بلا ملابس أو أي شيء، وكان بو حسن قد أخبره أنه من المقرر العودة في اليوم نفسه.

أغلقت نيفرا الهاتف، وأحست بارتياح شديد، فها هي جدتها تزكيه وتقول عنه كلاماً جميلاً وكذلك خالها رحمي، ولا بد أنه رأي عمها كذلك وهي تعرف أنه لا يوجد رأي يهمها قدر ما يهمها رأي مشاعرها، وإحساس الحب الكبير الذي تعيشه كلما رأته، وألم الانتظار المحرق كلما غاب عنها، إنها أحبته كما لم تحب امرأة من قبل، إنها من اللواتي مرت عليهن ليالي الجفاف والقحط، ولا تريد ضياع تلك الغيمة من سمائها، كلما مر عليها المحل اتقدت شوقاً للخصب، لقد أعماها حبه حتى عن السؤال التقليدي لكل فتاة حين تلتقي بشاب، حين تسأله عن حالته الاجتماعية، فالحب في الشرق مرتبط بالزواج، وقد صادرت مشاعرها تفكير المنطق والعقل حين يحاول معرفة كل شيء عمن يحب، اسمه الكامل، دراسته، أشياء كثيرة

غابت عنها، وكل ما كان يعنيها وهو فقط، ضحكته، لمسة راحتيه، شفتاه، صوته، بل كل شيء فيه وليس بمتعلقاته.

نزل مرزوق وليلى إلى حديقة الفندق، وقد غاب قارط عنهما، إلا أن مرزوقاً كان يشعر بأنه في مكان ما يمسك بمسبحته الصغيرة ويراقبه، كانت عيون مرزوق على الكرسي الذي جلست عليه نيفرا أول ما رآها، وأذنه إلى ليلى التي أسهبت بالحديث عن حياتها وعن زواجها الفاشل، وعن سنوات الدراسة التي قتلت فيها موهبة الفن الذي تحبه، وكيف كانت المدرسة مهتمة بحصة التدبير المنزلي ومهملة للفن والرسم، وعن معارضة والدها قبل أن يموت لدخولها مجال الفن، لأنه يؤدي بها إلى الاختلاط مع الرجال، إن الرجل الشرقي غالباً ما يفرض رأيه على أهله ولا يحاول أن يقنعهم بأفكاره حتى تكون تصرفاتهم نابعة من قناعة داخلية وليست من ضغوط خارجية، فإذا ما اختفى الضغط الخارجي عادت إلى السطح كل القناعات الداخلية، فها هي أم ليلى مع رامي وها هي ليلى تركب السفينة

سعياً وراء الاختلاط، ولك ما قام به زوج ليلى الذي استلم عصا الضغط الخارجي من الأب هو أن يأخذ ابنته منها، ظناً منه أنه يعاقب الأم بذلك، ولم يفكر للحظة واحدة بعذاب ابنته، لقد كانت ليلى معبأة من الداخل وكانت تريد الحديث مع أي شخص يقابلها، وقد كانت حريصة على أن تظهر أنها كانت ضحية ظروف اجتماعية، وتناست أنها قالت له إنها تؤمن بزواج الفنان وبوجوب الطلاق، إنها تحاول أن تكون قريبة من مرزوق أكثر من ذلك، تشعر أنه منشغل بشيء ما، شيء آخر، شيء بالطبع غير ليلى وإن كان معها.

دخل النادل على الحديث معتذراً وأخبر مرزوقاً بأن له مكالمة هاتفية، فعرف مرزوق أنه قارط، لأنه لا يوجد من يمكنه أن يطلبه هنا وضحك لأسلوب قارط الحضاري هذا، فاستأذن من ليلى وذهب إلى الاستقبال:

ـ ألو..

ـ كيف أنت أيها الغالي؟

ـ نيفرا؟

ـ ومـن غيرهـا ، سـأظل أحبـك وألاحقـك إلى آخـر العمر.

ـ إن أيـامي هنـا معـدودة، يمكـن الاحتفـاظ ببقيـة العمر لغيري يا نيفرا.

ـ لـن ترحـل يـا مـرزوق، لأنـك لا يمكـن أن تقتـل إنساناً ، وإن غادرت لا بد أن تعود دائماً.

ـ أي قتل هذا؟

ـ إذا رحلت سوف أموت يا مرزوق، هل يفرحك ذلك؟

ـ بالطبع لا يا نيفرا.

ـ لماذا لم تخبرني عن قصة محفظتك؟

ـ يـا إلهـي كيـف تنتقـل الأخبـار هنـا ، وهـل أصـبح للمحفظة قصة تحكى بين الناس؟

ـ أنا أتتبع أخبارك ولن تستطيع الفكاك مني.

ـ يبدو أن انتمـاء عـائلتكم لأصـحاب الكرامـات في أنطاكيا له علاقة بما يحدث، فعمـك كـذلك لا أذهـب إلى مكان إلا ورأيته أمامي.

ـ متى تعود؟

ـ ربما غداً.

ـ ولماذا ربما ، بل يجب، أو أرجوك اجعلها غداً وتعال مباشرة للإقامة عندي.

ـ أخبرتك يا نيفرا لا يمكنني ذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لا يمكن أن أجلس في بيت امرأة، في بيت ليس لي.

ـ وهل الفندق لك؟

ـ حين أدخل الغرفة أشعر أنها لي وحين أمشي فيه أشعر أن الفندق كله لي أيضاً.

ـ اعتبر الشقة لك، وأنا ضيفة عندك.

ـ ليس للاعتبار أي وزن عندي يا عمري.

ـ اعتبرها بالفعل يا مرزوق، سأكتبها باسمك إن كان يرضيك هذا فقط ابق معي.

ـ ماذا تقولين يا نيفرا ، أنت تقدمين الكثير، وأنا لا أستحق.

ــ أرجوك لا تكمل، أنت لا تعرف قدر نفسك عندي، ماذا قلت هل يرضيك ذلك؟

ـ وماذا ستحصلين مقابل ذلك؟

ـ وهل قربك مني يمكن أن أجد شيئاً يقابله؟

ـ أنت تقولين ذلك لأنك تعرفين أنه لا يمكن تسجيل أي ملكية لأجنبي.

ـ أعرف ولهذا سوف أقوم بكتابة وكالة عامة لك بالشقة.

ــ ولماذا كل هذا، يمكن أن نلتقي عندك أو عندي، أنت لست بحاجة لارتكاب أي حماقة.

ـ بل في شقتك أنت يا حبيبي، وحين تسافر سوف تحرص على العودة دائماً هنا إلا إذا اقتنعت بما يجول ببالي.

ـ وما هو؟

ـ حين أراك غداً أخبرك إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

أغلقت نيفرا الهاتف وأبقت أسئلة متقدة عند مرزوق، الذي التفت متجها إلى ليلى فأبصر قارط يجلس في زاوية الصالة، فحياه بابتسامة وأدرك مرزوق أن قارطاً عرف بتفاصيل المكالمة، فظل السؤال حياً بانتظار الغد، وهدمت مكالمة نيفرا كل ما بنته ليلى بدقائق، مسكينة ليلى، لو تعرفت على مترجم حقيقي لكانت أفضل حالاً، ولكنها كانت تشعر بأن لديها ما ليس لوالدتها ولشمس إنها فتاة في العشرينيات، تميل بشرتها إلى السمرة قليلاً، وفنانة، وهذه ثلاث أوراق يمكنها اللعب بها، كما أنها أبقت الورقة الرابعة للضرورة حيث أن والدتها ليس لديها إلا تلك الورقة ولعبت بها فربحت رامي، إنها ورقة المال.

طلب مرزوق من ليلى أن تسبقه للغرفة حيث أنه يريد الحديث مع بو حسن قارط، ووعدها بأن لا يتأخر، وحين غادرت ذهب إلى قارط وطلب منه الحديث خارج الفندق، وبدأ مرزوق الحديث مع قارط بلا مقدمات وأخبره بكل ما دار بينه وبين نيفرا وأنه عرف أنها الفتاة التي سرقت شقة ابنه يوسف، وأخبره قارط أنه كان

علـى شـك بوجـود علاقـة بينهمـا ، وأعـد لـه التحـذيرات السـابقة، فطلـب مـرزوق مـن قـارط أن يخفـي الأمـر سـراً وذلك مـن مـصلحته، فـإن تحـدث بـالأمر فإنـه يكـون قـد خسر أشياء أخرى، وأنه يعرف أن قارطاً كثير الكـلام ولكنـه يريـد أن يلغـي هـذه الخـصلة مـن صـفاته ويريـد كـذلك إلغـاء خـصلة إلقـاء أعقـاب الـسجائر وتركهـا مـشتعلة، إن قارطـاً مـن وجهـة نظـر مـرزوق رجـل طيـب ويجب عليه التخلص من عيوبه، ما دام هناك مـن يرشـده إليها.

صـعد مـرزوق إلى غرفتـه فاسـتقبلته ليلـى بملابـس مـثيرة، لم تـشتغل بهـا ماكينـات الخياطـة كـثيراً، فالخياطة بها قليلة، توحي بأن وحشاً قد هـاجم صـاحبها فقطعها من كل الجهات، كل الجهات فلم تعد تستر ما يتوجب ستره، فكانـت وكأنهـا ليلتهمـا الأولى، ولكـن لم تكـن عيون مرزوق على كتاب غينيس للأرقـام مثلمـا كانت عيونه في حمامات الترمال مع نيفرا.

اسـتيقظ مـرزوق علـى جـرس الهـاتف، حيـث كانـت نيفـرا، صـبحت عليـه وطلبـت منـه الاسـتعجال بالقـدوم

فوعـدها بـذلك وحـين التفـت إلى جانبـه لم يجـد ليلـى، ووجد ورقة مكتوب فيها:

"صباح الخير يا حبيبي، لقد ذهبت للإفطار وأخبرني الحاج بو حسن عن حمامات الترمال المعدنية، ونصحني بالحمام الملكي، أنا هناك وسوف أحجز غرفة باسم ليلى مرزوق، فإذا أفطرت فأنا هناك بانتظارك. حبيبتك ليلى".

أحس مرزوق بضيق من تطفل قارط ومن حرصه على إظهار معلوماته وأدرك أن ليلى لن تخرج من الحمام حتى يذهب إليها مرزوق، ونظراً لاستعجاله بالعودة قرر أن يذهب إلى الحمامات ليعود بها، أو أن يقوم بالحركة ذاتها، فيعود إلى اسطنبول ويتركها هنا، ولكنه فضل الاختيار الأول.

نزل مرزوق إلى بهو الفندق فالتقى قارطاً عند مدخل الفندق، حيث أخبره أنه أوصل ليلى إلى هناك وعاد لتوه، فأخبره مرزوق بضرورة العودة بسرعة إلى اسطنبول، وسأله إن كان قد حدث أحداً بما كلمه به

ليلة البارحة وأخبره قارط أنه جلس في الصباح مع خالها رحمي وأنه كان يريد أن يقول له ضب بنت أختك ولكنه تردد لأنه وعد مرزوقاً، الذي قال له وهي بنت أخيك أيضاً، وسوف تخسر أشياء كثيرة إن لم تتخلص من هذه العادة السيئة، فالنميمة والغيبة أشياء محرمة وغير محببة للناس، وقال له مرزوق:

- إن النميمة فن لست أتقنه، فحاول أن تنسى هذا الفن يا بو حسن وسوف ترتاح كثيراً وستجد من يحبونك أكثر.

وصل الاثنان إلى الحمامات وقرر قارط أن يجلس في حديقة المطعم القريب وسأل مرزوق عن غرفة ليلى مرزوق، فأرشده الموظف إلى غرفتها، فإذا هي الغرفة التي التقى بها مع نيفرا، إن الصدف تحاول أن تقتص من مرزوق، وكأنها تعنيه، وتخطط له، فلم تعد الصدف في حد ذاتها صدفاً، بل كأن هناك تخطيطاً منسقاً، ربما كي تنتقم ليلى من نيفرا لنيفرا، وهل جنون نيفرا هو الذي كان معه، ولا بد أن يكون لهدى ضلع بهذا التخطيط، فهل هي التي قادته دون أن يدري

إلى كوك شدرة، وذهبت بليلى إلى الغرفة نفسها بحمامات الترمال، ألا تكون هدى هي التي بالداخل، ألم تقل أنها ستراه قريباً؟ إن هدى التي قالت له إن ما كان من جنون نيفرا معه كان جنونها هي، وإن مرزوقاً يرغب بلقاء هدى ولكن ليس على طريقتها هي، وغياب سلامة وعثمان عنه لم يكن أمراً طبيعياً في قرية كوك شدرة الصغيرة فكان لا بد أن يراهما إذا ما كانا خارج الغرفة، ولكن غرابة الغياب تبددت حين عرف عن طريق السيد رحمي أنهما في مدينة يلوا للاتصال بالهاتف الدولي، ومعرفة مرزوق بسلامة تجعله على قناعة أن من يقوم بالاتصال هو عثمان، ولمعرفته بعثمان وبانقطاعه عن كل الناس ما عدا أخته هدى جعله على قناعة أن عثمان قام بالاتصال بهدى ولكنه لا يعرف لأي سبب.

تمالك مرزوق أعصابه وطرق الباب، وحين سمع صوت ليلى يسأل عنه، تردد في أن يبوح باسمه، ولكنه على قناعة بأن ليلى لن تترك الحمام قبل أن يأتي مرزوق، وحين بدأت بترديد طلب اسم من طلب اسمه من وراء الباب، أدرك بأنها بانتظاره، أخبرها ففتحت

الباب، ليستقبله البخار الحار ورائحة الأنوثة، فطلب منها ارتداء ملابسها للذهاب ولكنها أصرت عليه ليس قبل أن يستحم هو وليس قبل أن...

أحس مرزوق بأنه يخون نيفرا، إن كل شبر في أرضية الغرفة عليه بصمة لنيفرا، وشاهد إثبات يقول له، لقد كانت هنا نيفرا، لقد مرت هنا نيفرا، لقد مرت الدقائق بطيئة عليه، كأنها تعويض لتلك الدقائق التي مرت بسرعة قبل يومين هنا، إن الزمن يخرج بموازنة كاملة في النهاية فهو حين يعطي يأخذ وحين يأخذ يعطي فتكون محصلة كاملة، وهناك من يفلت من الزمن فهو يأخذ إلى أن يرحل، وهناك من يعطي إلى أن يرحل، وتستمر الحياة بين الأخذ والعطاء، وخرج الاثنان من الحمام قبل أن تكتمل الساعة التي حجزتها ليلى.

الفصل السادس

في بهو الفندق طلب مرزوق من ليلى الذهاب إلى الغرفة وإحضار حاجياتها بعد أن لمح سلامة الجفالي جالساً في إحدى الزوايا وحيداً فاقترب منه وجلس بجانبه وتلعثم أن يبدأ الحديث معه كما هي عادته حين يودع شخصاً عزيزاً.

ـ لا أعرف ماذا أقول لك يا سلامة ولكن ربما لن نلتقي بعد اليوم فأنا لا أعرف ظروفي، بعد أن اختلطت علي الأوراق، بين الحب والوفاء، والعدل والمبادئ وأنني في واقع الأمر في حيرة من أمري.

ـ إنه الحب يا صديقي.

ـ وهل تعرف الحب أنت؟ وماذا عن هدى وشمس وكيف أمكنك التوفيق بينهما؟

ـ هناك فرق بين الحب والمصلحة.

ـ أي حب يا سلامة هذا الذي تعرفه؟

ــ لـدي اجتهـادي في ذلـك، وتعريـف الحـب، هـو كتعريف الشعر لأن مرتعهما العاطفة والشعور، وحيث أنه لم تتفق الآراء على تعريف الشعر كذلك هو الحب، فليس له تعريف محدد، إنه حدس، وإذا ما تم تحديده فإنه قد دخل في دائرة الممكن المتواجد وهذا مما يقلل من أهميته، حيث أنه من أجمل صفات الحب، هي أن تشعر بعدم اكتماله، وأن هنالك المزيد منه في كل حالة، وهو دائم التجدد، ولكننا يمكن أن نحدد الشكل العام للحب تبعاً لبعض الحالات التي أدت إلى وجود تلك العلاقة، فهناك مثلاً علاقة حب أحد أطرافها الجمال، وهناك قوة الشخصية، وهناك الجاذبية، وهناك الثقافة، وهناك لا سبب محدد وتجد حالة حب ولا تجد الرابطة فيها، وهذا ما يقال عنه بأن الحب أعمى.

ـ هل تريد مني أن أعرف الحب، أنا لا أعرف له تعريفاً محدداً، ولا أريد أن أتبنى رأياً لأحد فيه، أنا فقط أعيشه ويكفيني هذا.

ـ ألم تشعر بالشفقة على بشار بن برد حين قال الأذن تعشق قبل العين أحياناً، وأحسست أنه لم يقل ذلك إلا لأنه أعمى وأنه غير مصيب بذلك؟

ـ في لحظة ما.. نعم.

ـ ولكنه كان مصيباً يا صديقي، وحاسة السمع هي أهم حاسة في الحب، فبلا نقاش وحوار واستماع ومكالمات في الغالب تلفونية لا يمكن أن تتوطد أواصر الحب الذي بدأ بحاسة البصر.

ـ لقد أدخلتنا في متاهة الحواس وكأننا في حوار طبي.

ـ يا عزيزي أنا سمعت هدى كثيراً، وسمعتها تغني وكانت كأجمل ما سمعت من أصوات الغناء.

ـ لقد شوقتني حقاً لرؤيتها، ولسماعها بالطبع.

كانت سلوكيات سلامة الجفالي الغريبة تجعل من حوله في حيرة من أمره، فلم يكن يطيب له الرقاد دون أن يضع عطراً نسائياً في مخدته، ربما حتى يشعر بالمرأة قربه، وقد أخبر مرة مرزوقاً أن هدى تستعمل عطراً معيناً، عرفته حين حضرت عرضا لعطور شانيل وقد انفردت بأخصائي العطور وسألته عن العطر المناسب لها، فقال لها هامساً إذا كان مميزاً لديك فاستعملي شانيل (٥) ولا تخبري أحداً بالسر، ومن ذلك الحين وهذا العطر ملازم لسلامة فهو يتذكرها به ويحسها بقربه، فودع مرزوق سلامة آملاً أن يلقاه، ولكن سلامة الذي غطت الابتسامة ملامح وجهه كان يخفي شيئاً ساراً لمرزوق وأصبح على قناعة بأن هدى قادرة على الإتيان بمرزوق وقت تشاء، وربما عرف شيئاً من عثمان البودر حين حدثها قبل قليل بالهاتف.

دخل مرزوق غرفته في فندق عتابا مرمرة بعد أن أوصل ليلى إلى غرفتها، ففوجئ بسلة ورد كبيرة تقول البطاقة المعلقة عليها "الحمد لله على السلامة، تحت السلة مظروف لك، أنا بانتظارك، حبيبتك نيفرا".

رفع مرزوق السلة فوجد الرسالة، وكانت عبارة عن ورقة رسمية، لم يفهم منها شيئاً، إلا أنه قرأ اسمه كاملاً وجنسيته، فحمل الرسالة إلى موظف الاستقبال ليقرأها له، فأخبره أنها وكالة عامة على شقة تقع في العنوان الذي عرفه مرزوق، لقد فعلتها نيفرا النافرة، وكتبت الشقة له حتى تضمن حضوره لها، فقام بالاتصال بها يخبرها بقدومه إليها، فقالت وهل يستأذن صاحب البيت في دخول بيته، وفي صالة الاستقبال طلب من قارط أن يذهب إلى أهله اليوم ويعود له غداً صباحاً، وحين حاول قارط أن يستوضح منه، كانت يمينه تقبض على مبلغ من المال فسكت وذهب.

دخل مرزوق شقة نيفرا فاستقبلته بلهفة شديدة وصوت آلة التسجيل يصرخ بأغنية جميلة، قالت له نيفرا:

- هل تعرف ماذا تقول هذه الأغنية؟

- بالطبع لا، ولكنها جميلة، والأغنية الجميلة تصل إلى قلب المستمع حتى وإن لم يفهمها.

ـ إنها تقول "هبسي سنيما" أي افتحي لي صدرك: "أي نم شو كودم شو كودم" أنا قادم أنا قادم.

ضحكت نيفرا وضحك مرزوق وقال لها:

ـ "هبسي سنيما".

ففتحت نيفرا صدرها فقال لها:

ـ أي نم شو كودم شو كودم.

وأقبل عليها ليعيد إلى ذاكرته الحية نيفرا النافرة، ويدخل في صراع آخر وفوضى أخرى، وكتاب غينيس للأرقام، يعود إلى مخيلته حياً.

دخلت ليلى في دوامة من التفكير، فبعد أن اتصلت بمرزوق ولم تجده أحست أنها يجب أن تنتظره حتى يأتي، لقد أصبح، نهارها وليلها منذ التقت به انتظاراً له، لم يعد هناك شيء يغريها في هذا السفر إلا انتظار مرزوق إنه أدخلها في دائرة الكآبة والسعادة، والخوف والفرح، تتمنى أن تعيد حركة الجنون معه هذه الليلة، الآن في خاصرة النهار فهل يمكنها أن تخرج للتسوق أو لأي سبب آخر، إن اسطنبول أمامها مغلقة ولم يعد بها

شـــيء حـــي إلا غرفــة رقــم ٥٠٩ ، ودفــتر كــبير تغــيرت الرسـوم بـه ، فبعـد أن كـان مقتصراً علـى رسـوم النسـاء العاريات، هنـاك عـدة صفحات لرجل عـار وهنـاك لوحـة عيون باكية وعيون أخـرى فرحـة ، وهنـاك غابـة خضـراء وقـد بـدأ الخريـف بمهاجمتهـا ، إن مـشاعر ليلـى الفنانـة كانت واعية لما يمكن أن يحدث، بـل إنهـا متوقعـة ذلـك في كثير من لوحاتها ، ولكنها تشعر أنها تحب أن تعيش الأيام هنـا كمـا تريـد هـي أولاً ، وهـي تريـده وتحبـه رغـم أنـه بـدأ يدخلـها بـدائرة الـسيد عبـد الجـواد الـشهير بـسي الـسيد ، لقـد أحبـت دور أمينـة رغـم أنهـا كانـت تمقتـه سابقاً ، إنها بانتظاره، فربما يطلب منها أن تعيد حركـة الجنون تلك، إن كـل مـا فيهـا متخفـز لـذلك فمتـى يطـل هذا الذي أنساهـا حتـى الاتصـال بغرفـة والـدتها والـسؤال عنها وعن رامـي الفتـى المـدلل عنـدها ، والـذي يفرحهـا أن تسأل عنه ابنتها. انتبهت نيفرا وهـي مـستلقية علـى سـؤال مرزوق:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ من أجل حبيبي.

ـ وكيف حصلت على الاسم كاملاً؟

ـ سألت الفندق فأطلعوني على جواز سفرك.

ـ بهذه السهولة!

ـ بالمال، المال الذي يصنع كل شيء.

ـ ليس كل شيء يا نيفرا، احذري من هذه النظرة المريضة والمفسدة في المجتمع.

اعتدلت نيفرا في جلستها، وأخبرت مرزوقاً أنها تريد أن تحدثه ولكنها تخشى أن يسيء فهمها.

ـ اسمع يا مرزوق حتى أنهي كلامي أرجوك.

ـ تفضلي.

ـ أنا أحبك أكثر من أي شيء حولي، وأريدك معي، ألا أعجبك ألا تعجبك الحياة هنا، إما أن تأخذني معك أو أن تبقى معي، فإذا أردتني أن أذهب معك فأينما تكون ستكون جنتي وإذا أردت البقاء هنا فأنا لدي الكثير من المال، أدخلك شريكاً معي في المطعم والمحلات التي باسمي ونعيش هنا وهناك، ونزور كل بقاع الأرض معاً.

- هل انتهيت؟

- لم يعجبك كلامي.

- نعم لم يعجبني، وطلبت منك أن تنسي المادة، إنها ليست كل شيء في هذه الحياة.

- المال هو الذي يضمن لنا الحياة هنا فقط.

- ما هي أخبار صحة أبيك؟

- ولماذا السؤال؟

- فقط للعلم.

- منذ فترة وهو يعاني من الضغط والسكري.

- إن عمك بو حسن أكبر منه سناً، ولا يعاني من أي شيء إن المال في كثير من الأحيان يكون نقمة وليس نعمة، إن عمك يأكل البوظة و الحلويات ويمشي أكثر مني، ويدخن ويقوم بكل الذي لا يستطيع والدك القيام به

- هذا صحيح.

- إذن حاولي أن تعيدي ما ليس لك.

تغيرت ملامح نيفرا قليلاً.

ـ كل شيء ملكي وليس عندي شيء لغيري، المطعم والمحلات والشقة هذه كلها لي.

أحس مرزوق أن نيفرا بكل ما فيها من جمال وأنوثة، تفتقد إلى المشاعر الإنسانية النبيلة، وإلى العدالة الاجتماعية، والحق، إنها بلا أي مبدأ في هذه الحياة، وقد كان مرزوق يرى أن الإنسان يجب أن يكون لديه مبادئ في الحياة يحترمها حتى وإن صغرت هذه المبادئ، فجميل أن يكون للإنسان مبدأ حتى وإن كان تغيير سجائره أو شكل علبة محارم الورق، حتى وإن صغر المبدأ إلى هذا الحد، فمن الرائع أن يحافظ عليه الإنسان، إن نيفرا رغم سحرها وارتعاشها الأخاذ لا يمكنها أن تصادر المبادئ التي يحترمها مرزوق وأهمها الحرية والعدالة وإحقاق الحق، إنه في كل حياته لم يحاول أن يصادر حرية أحد أو أن يظلم أحداً، أو أن يسكت عن الحق إن كان يقدر على ذلك.

خرج مرزوق من شقته، كما تسميها نيفرا ووعدها أن يأتي لها في الغد وأن عليها أن تقضي الليلة مع أهلها، فوافقت بعد إلحاحه، كانت الساعة السادسة مساء ولا يمكن أن يجد ليلى أو قارطاً في هذه الساعة، تجول في الأسواق، أعجبته قلادة من قواقع البحر فاشتراها لليلى إن هذه الإنسانة تحبه بحرية الحب وليس بتملك الحب، إنه لم ينصفها في حبه لها، كتب لها أبياتاً أحبته بسببها وتركها تلهث خلفه، وفي يقظة المبادئ التي تسيطر عليه في هذه اللحظة، أحب رؤيتها، فعاد إلى الفندق بلا أمل في رؤيتها، وقبل أن يذهب إلى غرفته طرق باب غرفتها وهو سائر إلى غرفته، وقبل أن ينعطف في الممر سمع صوت باب غرفتها يفتح، لم تنتظره وعانقته في الممر ودخلت به إلى غرفتها، حيث كانت الملابس والأحذية متناثرة بفوضى إلا من زاوية واحدة حيث تستند لوحة على كرسي وقربها فنجان من القهوة، مصبوغ أحد جوانبه باللون الأحمر، وفي اللوحة رسمة جواد بري جامح وخلفه عدة خيول تلاحقه، الجواد الأول متجه إلى دوائر متداخلة، وحين أبدى إعجابه باللوحة

وبتغيير ليلى لأسلوبها القديم في الرسم، قالت له هل فهمت هذه اللوحة، تردد حيث أن تجربته مع الفنانين ليست مشرفة، فكثيراً ما كان يسمع شرحاً من فنان تشكيلي لا يمت إلى اللوحة بصلة، فيكون المعنى شيئاً والألوان شيئاً آخر في اللوحة، مما اضطره ذات يوم لكتابة أبيات على لوحة معلقة لم يفهم منها شيئاً ولم يقنعه تجانس الألوان فيها، وكانت مسخاً لوجه إنسان.

سقط الفن هنيئاً لكمُ   بسقوط الفنِّ أو بالانحدارْ

قد تبرأنا جميعاً منكمُ   قدمَ الفنُّ لكم عنّا اعتذارْ

هذه أشباحكم أنكرها   قبل إحساسٍ لنا هذا الجدارْ

مما أغضب الفنان والذي رد عليه بعبارة أجنبية مترجمة لا يذكر منها شيئاً، حين تذكر هذه الحادثة امتنع عن الاجتهاد في شرح اللوحة، فقالت له:

ـ الفرس الذي في المقدمة أنت يا مرزوق، وأشعر بأنك ذاهب إلى جهة غير معروفة يمكن أن تكون الضياع.

- وأين أنت في هذه اللوحة؟

- إنني واحدة من الخيول التي خلفك.

- أرجوك يا ليلى اجعلي واحدة من تلك الجياد مع فرس المقدمة، واستبدلي بهذه الدوائر شيئاً آخر أنت تريدينه.

فقامت من مكانها واحتضنته بشدة، أحس بضلوعها تتداخل بين ضلوعه لولا مسمارين يحولان دون ذلك، فتمتم هامساً بأذنها.

وضمتها بتعطشٍ وبعنفوانْ

وكأن نهديها بصدري يصرخانْ

رفقاً بنا

في الصباح، استيقظ مرزوق على طرق الباب، حيث قامت ليلى وفتحت لتدخل أم ليلى عليها، فستر مرزوق نفسه بغطاء السرير، حيث بادرته:

- صباح الخير.

- صباح الورد.

وأحس مرزوق ببعض الحرج.

ـ هل أنت مكسوف مني، أنت مثل ولدي؟

ـ من ناحية العمر أو المعزة؟

ـ العمر والمعزة؟

ـ ولكنني أكبر من رامي في العمر.

ـ ما شأنك أنت ورامي هو شيء وأنت شيء آخر؟

ـ هل اشتريت الفندق؟

ـ هذا ليس من اختصاصك، عندك ليلى وحاكمها.

استدارت إلى الباب وقالت لليلى سوف أتأخر اليوم يا حبيبتي مع السلامة.

عادت ليلى وبادرت مرزوقاً:

ـ مرزوق لماذا تكره والدتي؟

ـ أنا أحب لها الخير، وأخاف عليها يا ليلى، كيف تقولين ذلك؟

ـ يا حبيبي أمي تزعل بسرعة، خاصة إذا تدخل أحد بشؤونها.

ـ أنت سلبية جداً يا ليلى، وهذا هو عيبك الوحيد، لا بد أن تقولي شيئاً وصدقيني سوف تنفع كلمتك في وقت لاحق.

ــ أمي تحاول أن تعوض أيام الحرمان القديمة، وكما قالت لك أنا أمامك وأمرك واجب علي وحدي.

دخلت ليلى إلى الحمام وحين بدأ صوت الماء تذكر ذلك اليوم، فقال لها من وراء الباب سأراك على الغداء، وخرج إلى غرفته، وبعد الحمام نزل إلى بهو الفندق فوجد ذلك العجوز المسكين، قارطاً بانتظاره، فقال له هيا نذهب إلى مكتب البلدية، فسأله عن المعاملة التي يريد إنجازها، فقال له أريد أن تستخرج ورقة ملكية، فأجابه قارط تقصد ورقة الطابو، فقال نعم هكذا نسمعها في المسلسلات السورية.

وحين وصل الاثنان استخرج مرزوق الوكالة من جيبه وقال لقارط:

ــ يا بو حسن هذه وكالة من نيفرا على شقة يوسف، أريد أن أتنازل عنها لك.

ـ لي أنا؟

ـ أليست لك في الأصل، لقد كتبتها لي نيفرا من شدة حبها، وكذلك كتبها يوسف لها من شدة حبه لها.

ـ بل كتبها لها بالخداع.

ـ ما أخذ بالخداع، يسترد بالحب.

دمعت عيون قارط من شدة الفرح وأخرج هويته وبدأ الحديث مع الموظف لإنجاز عملية التنازل، واستخرج ورقة الطابو كما يسميها قارط، وقد فرح مرزوق لأنه رأى دموع الفرح في عيون قارط، الذي أدخل سبحته في جيبه لانشغاله بالأوراق والتواقيع، وهو يتمتم الله يعمر بيتك، الله يحفظك، يا أصيل يا ابن الأصول. لقد تمت إجراءات النقل بطيئة على قارط، وما أن استلم سند الاستلام حتى قال قارط ضاحكاً ومتوتراً:

ـ سوف أطرد بنت الحرام بهذا السند الآن.

ـ انتظر يا بو حسن حتى تستلم الورقة الرسمية، وإلا أوقفت المعاملة كاملة وأنت تعرف أن أباها رجل مهم.

ـ أعرف والله، وما وصل إلى ما هو فيه إلا من فلوس أبي وبيع البستان.

ـ أعرف القصة يا بو حسن وقد اتفقنا على وقف النميمة وأن ننسى.

ـ وكما قلت يا ابني ما أخذ بالخداع استرجعناه بالحب.

قبل أن يغادر مرزوق وقارط المكان فوجئ بصوت نسائي من ورائه، إنها أم ليلى ومعها رامي مرتدياً بدلة سوداء، وكأنها قد اشترتها له قبل قليل فهو ما زال يتحسس طولها ويراقب أكمامه.

ـ لم تبارك لي يا مرزوق.

ـ على ماذا؟

ـ لقد اشتريت عمارة وسوف نحولها إلى فندق.

ـ التفت مرزوق إلى رامي المنشغل ببدلته وقال له:

ـ مبروك عليك الفندق يا رامي.

ـ تلعثم رامي بالرد فقالت أم ليلى:

ـ وأنت ماذا اشتريت حتى تسجله هنا؟

ـ اشتريت جزيرة سياحية صغيرة.

ـ مشروع حلو، وكتبتها باسم من؟

ـ باسم هذا الرجل.

وأشار إلى قارط وخرجا، وقبل أن يتكلم قارط، قال له مرزوق أعرف ما ستقول، ولكن كما قلنا سابقاً، إياك والنميمة، وكل إنسان له نصيبه يا بو حسن.

وفي طريق العودة طلب مرزوق من قارط أن يتعامل مع نيفرا برقة، وأنه سوف يعطيه رسالة يسلمها لها بعد أن يستلم ورقة الشقة، وطلب مرزوق من قارط أن يأخذه إلى مكتب السفريات ليعجل في سفره، وهناك عرف بوجود طائرة في مساء اليوم نفسه فقرر السفر بها، لأنه أحس أن اسطنبول أصبحت من ورائه ركاماً، نيفرا ماذا ستقول، وليلى التي جعلت أيامها وقفاً على انتظاره الذي يأتي ولا يأتي، وقارط أعمته الفرحة فأصبح يستعجل الفكاك من مرزوق ليتفرغ لاستلام شقته وأخبار زوجته وأولاده، إن اسطنبول ركام فلا بد له من

الرحيل، حتى لا يتسبب بإيذاء غيره، ويكفيه أن يتخيل دموع نيفرا ليلعن اليوم الذي عرف فيه قصة يوسف معها، ويكفيه أن يتخيل لوحة ليلى وقد رسمت فرساً آخر في المقدمة واستبدلت الدوائر، فيجيبها الانتظار الطويل، أن هناك جواداً برياً واحداً في المقدمة، ليحزن من تلك القصيدة التي قالها وهي تحت الماء عارية، إن اسطنبول ركام لا يمكن البقاء فيه دون أذى للآخرين، وحتى لا تزيد أحزانه وأحزان الآخرين لا بد له من الرحيل.

دخل غرفته وحزم حقائبه بسرعة، واكتشف وجود العقد المصنوع من القواقع في جيبه، فكتب رسالة ووضع العقد داخلها.

"إلى ليلى..

إلى الاسم الذي عذب قيساً، وتغنى به الشعراء، ليتني كنت أحدهم، لم أتغن بك كما يليق بفنانة رقيقة، أحبت فأعطت، وانتظرت فلم تحصل على شيء.

عزيزتي ليلى..

إن ركـــام اســطنبول يــدفعني إلى الرحيــل، وصــور النـساء العاريـات في دفـترك وصـورة ذلـك الجـواد الـبري تدعوني بعنف إلى البقاء ولكن ركام اسطنبول أقوى، ورغبتي بلعبة الجنون تكاد تشل تفكيري، وأشعر أنـني لـو لعبتهـا ألـف مـرة، سـوف تكـون المـرة الألـف جديـدة علـي، وسأكتـشف بهـا أشـياء أخـرى، ولكـن ركـام اسـطنبول أقـوى مـن رغـبتي وجنـون اشـتياقي لـرؤيـة ذلـك الفستان الممزق من كل الجهات، كل الجهات تمتصني حتـى أشـعر أنـني أتلاشـى أمامـه يـا ليلـى، ولكـن ركـام اسطنبول ما زال أقوى، فلا بد لي من الرحيل.

ليلى..

إن العقـد الـصدفي هـذا، كنـت قـد اشـتريته لـك بـالأمس، وحـين نـسيت أن أهـديك إيـاه، أيقنـت أنـك في الذاكرة كالبرق، تومضين وتختفين وكنت أتمنـى أن تكوني كالمطر المتواصل، حتـى أشـعر أنـك قـادرة علـى إعمار اسطنبول. وإن الركـام مـن حـولي لا بـد أن يـزول، ولكنني نسيت، هل تعرفين معنـى أن ينـسى محـب هديـة اشتراها لمن يحب، لا أريد أن أقولها ولكنها ممـا لـيس

يرضيك مني، ولا أريدك أن تغضبي لذلك، واعتبريني كالمأساة، والفنان لا يبدع إلا بالمآسي، فربما يجمعنا يوما معرض فني لك، أو ندوة لي، فابحثي عن ملامحك في كتاباتي، وستجدين أنك كنت معي بعد رحيلي عن ركام اسطنبول.

عزيزتي ليلى..

اهتمي بما هو أهم مني ومن أشياء كثيرة كنت تضيعين الوقت بها، فاعتبريني كالوقت الضائع، وابتدئي ثانية، ودعائي لك ولن أترك لك عنواناً حتى يكون لقاؤنا الثاني كالصدفة جميلاً ورائعاً.

مرزوق"

وقبل أن يكتب مرزوق رسالته لنيفرا، تذكر أنه لم يسألها إن كانت تعرف القراءة والكتابة بالعربية، وكان حدسه أنها لا تعرف غير المحادثة لعدم وجود مناهج عربية في مدارسهم، فنزل بسرعة لقارط الجالس في بهو الفندق وأعطاه مبلغاً من المال وطلب منه شراء آلة تسجيل صغيرة بسرعة، وتذكر أنه لم يوص قارطاً

بإحضار شريط، وأدرك أن قارطاً لن يفطن لذلك، فطلب من مكتب الاستقبال شريط المغني التركي صاحب أغنية "هبسي سنيمي"، حيث كان يسمعها في السماعات الداخلية للفندق، فاشتراه منه بعد إلحاح.

أحضر قارط المسجلة، وكما توقع بلا شريط، وما أن قام قارط بشرح سعرها وكيف فاصل البائع، حتى هرول مرزوق إلى غرفته فليس أمامه من الوقت الكثير ولا بد له من تسجيل رسالته لنيفرا، فاسترخى على سريره وأمامه آلة التسجيل بعد أن أعدها بعد الأغنية، وما أن انتهى المغني من قول "هبسي سنيمي" أي نم شو كودم شو كودم قال:

" حبيبتي نيفرا..

كنت أتمنى أن أعيش على أنغام هذه الكلمات وأنت معي طوال عمري، أولاً، لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أعشق امرأة بهذا العنف مثلما أنت يا نيفرا، وأعترف أنه لم يكن يثيرني منظر الغابة ولم أحبه حتى رأيت عينيك فحاصرني اللون الأخضر، حتى بدأت لا

أميل إلا إلى الألبسة الخضراء، والأطعمة الخضراء والغابات الخضراء. وأعترف يا حبيبتي أن كوك شدرة كانت قرية جميلة، وحين رأيتك فيها أصبحت جنة سأسعى كل عام لزيارتها، وإن أطيب وجبة أكلتها كانت في مطعم حسن بابا، وأن رائحة جسدي عالق بها بخار حمامات الترمال ورائحة جسدك الممدد الأبيض على الرخام. وأعترف يا نيفرا أن كتاب غينيس للأرقام كان عندي فكرة سخيفة، وأصبح اهتمامي به كبيراً منذ ذلك المساء

حبيبتي نيفرا..

أعرف أن الحب يتبعه فراق وأذى وأعرف أن الحب الكبير يولد أذى كبيراً، وأعرف أنك قوية جداً فاحتملي من أجلي ومن أجل ذلك الحب الذي تسلق إلى قمة الجبال في كوك شدرة بدقائق، والذي اقتحم أعماقنا بسرعة الشظية، حتى نسينا من كنا نحب ومن كنا نفتدي سابقاً، فكأننا نعرف الحب لأول مرة، ونمارس المراهقة العاطفية لأول مرة.

حبيبتي نيفرا..

إن الدقائق التي قضيتها معك، بدت سنين طويلة من الانتظار لحب كحبك لي، فكنت أحسد نفسي وأنا معك وأستكثرك علي وما أزال كذلك، لم تكوني حدثاً عابراً ولن تكوني أبداً، سوف أراك في يقظتي ومنامي، والليلة التي لا تأتين فيها سوف أبددها سهراً، والقصيدة التي لا تعتمر إليك ليست شعراً، والشوق الذي لا يفضي إليك ليس من أتباعي، والغابة التي لا توحي لي بك ليست من غنائمي فلا أراها.

أحبك يا نيفرا وركام الأيام الأخيرة في اسطنبول لن يدوم، أودعك يا نيفرا حتى أراك، نعم أودعك حتى أراك، لأنني لا يمكنني أن أتخيل عمري بلا نيفرا، أو أتخيل وجودي بلا دفئك الشهي الرائع.

أودعك حتى أعود إليك قوياً، فلا يمكنني أن أكون قوياً وهذا الركام من حولي. أودعك حفاظاً على مبادئ كنت قد ربيتها معي منذ الصغر، وحفاظي عليها أنجب ركام اسطنبول من حولي، فأنا بين نارين، حبي

لمبادئي وحبي لك، وكان لا بد لي من استراحة قصيرة لاسترداد النفس، يسميها البعض استراحة المحارب.

حبيبتي نيفرا..

لم أفكر في خيانة ثقتك بي أبداً ولكنك تكتملين حين لا تشوبك شائبة، وأنت التي حباها الله الجمال والصحة والمال لا يتناسب معها الظلم، فتصرفت بما يجب أن تقومي به أنت منذ زمن، لقد أعدت الشقة إلى صاحبها عمك الحاج بو حسن، ولا أطلب منك السماح على ذلك بل يتوجب عليك أن تشكريني لأنني أحاول أن أغسل كل شائبة، حتى تكوني كما أراك يا نيفرا رائعة وفاتنة وعادلة، وطيبة وعاشقة.

أحبك وأسافر وأنت أكبر عندي مما كنت، ولا بد لي من عودة قريبة وأعرف أين أجدك، فأنت أينما تكونين تتعطر المدينة منك، ولن تضيع مني رائحتك ولا رائحة المدينة التي أنت فيها.

أودعك حتى أراك، وإذا طال انتظارك فقولي:

شاعر مرّ من هنا

مرّ لا بد أن يعودْ

صوته دفقة السنا

والرياحين والورودْ

مرَّ كالطيف شارداً

لم يزل يملأ الوجودْ

فإذا خان وعده

يصدق الطيف في الوعود

أي نم شو كودم شو كودم

حبيبك مرزوق"

ونزل بحقيبة سفره، وأعطى استعلامات الفندق الرسالة والعقد ليوصلاهما لليلى، وأعطى الشريط لقارط وأوصاه أن يسلمه لنيفرا بعد أن يستلم الأوراق الرسمية غداً، وأخبره أن يوضح لها الموضوع وأوصاه أن يترفق بها.

وفي المطار فوجئ مرزوق برؤية سلامة الجفالي الذي تغيرت ألوان ملابسه، فبعد أن كانت داكنة توحي

بالاتزان تحولت إلى ألوان زاهية، وهو يتقلد ذراع شمس، وعرف منهما أنهما بانتظار هدى، وأن عثمان ذهب للاتصال للتأكد من رقم وموعد الرحلة، وكانت صدمة لسلامة أن يعرف أن مرزوقاً قد قرر السفر فجأة وكان بوده لو يلتقي بهدى.

لقد كان قارط بشوشاً على غير عادته حين يلتقي بسلامة الجفالي، فمهمته قد انتهت، وشقته قد عادت، فلم يعد يعنيه من أمر سلامة شيء، وأثناء الحديث حيث كان مرزوق يملي على سلامة عنوانه، وصل إليهم عثمان البودر بطاقيته التركية كعادته وقال لهم إن هدى ألغت الرحلة وقالت لا فائدة من المجيء لأن مرزوقاً لن يكون هناك، وكان مستنكراً لمعلوماتها، فتبدد استنكاره حين شاهد حقيبة سفر مرزوق وعرف أنه مسافر بعد قليل، فقال مرزوق لعثمان:

- خيرها في غيرها وبلغ تحياتي لهدى.

- لقد قالت لي قل له حاول أن تأتي إلى اليمن إنها بانتظارك، ويمكنك أن تقوم بتحويل طائرتك إلى اليمن.

ـ سأفكر في الموضوع في الطائرة.

ودع مرزوق المجموعة وانفرد بقارط:

ـ إن الأحداث التي مرت معي هنا سوف أكتبها.

ـ شيء حلو.

ـ ولكن ماذا تسمي يا بو حسن ما سأكتبه عنك، هل هو نميمة أم وشاية، أم قصة طويلة، أم رواية، أم إفشاء سر.

ـ إفشاء سر شيء حلو، ما دمت تقول إن النميمة فن لست أتقنه.

ـ ولكن إفشاء السر كالفتنة، أتحب أن يقول الناس عني إنني فتان؟

ـ لا، طبعاً ولكن ما فائدتي أنا من كل ذلك؟

ـ تبحث دائماً عن الفائدة يا قارط.

ـ من قارط هذا؟

ضحك مرزوق بصوت عال وقال:

ـ هذا هو الاسم الذي كنت أسميك به في غيابك،

وقد علق بذهني هذا الاسم حين لفظت كلمة كارت التلفون، وقلت قارط وكان يمكن أن تقول بطاقة.

ـ وهل ستكتب اسمي قارطاً؟

ـ نعم.

ـ إذن سم ما تكتبه فضيحة.

ـ وهل تستفيد أنت من ذلك؟

ـ لا أعرف أخبرني أنت.

ـ إذا سميتها رواية، واشتراها الناس، فسوف تعود إليك أرباحها.

ـ وهل ستكتب فيها ما أخذ بالخداع، استرجعناه بالحب؟

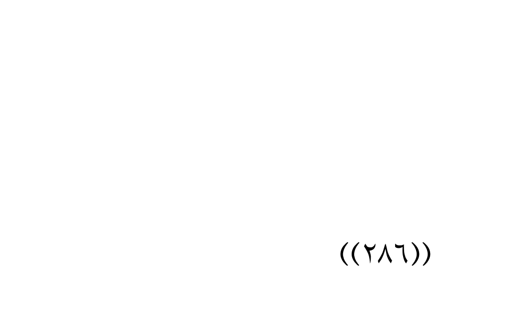
ـ أجل.

ـ سمها رواية إذن.

ـ وما هو الاسم المناسب لها.

ـ قول هيك اللي صار في اسطنبول.

"انتهت"



الفهرس

